مَلَكُ المَوْتِ وَالأَنبِيَاءُ

عليهم السلام

دكتور/ مصطفى مُراد
كلية الدعوة - جامعة الأزهر

دار الفجر للتراث

ملك الموت والأنبياء

عليهم السلام

إعداد

دكتور / مصطفى مراد
كلية الدعوة - جامعة الأزهر

دار الفجر للتراث
خلف الجامع الأزهر - القاهرة
٥١٤٧١٧٩ - ٥١٤٧٢٤٨
٠١٢٧٤١٨٣٤٨

تقديم

الحمد لك:

يا حي قبل كل حي، يا حي بعد كل حي، يا حي لا يشبهه حي، يا حي ليس كمثله حي، يا حي لا يشاركه حي، يا حي يحيي الموتى، يا حي لا يحتاج إلى حي، يا حي يُميت كل حي، يا حي يرزق كل حي، يا حي لا يموت.

كل باكٍ فسيُبكى وكل ناع فسيُنعى
وكل مذكور سيُنسى وكل مذخور سيُفنى
ليس غير الله يبقى من علا فالله أعلى

* * *

سبحانك يا صاحب العزة والجبروت
سبحانك يا صاحب الملك والملكوت
سبحانك يا مَن كتبت الموت على الخلائق ولا تموت
سبحانك يا من ألهمت يونس في بطن الحوت
وحفظت النملة بقدرتك من الجنود
وألهمت عيسى بالنطق وهو مولود
وحفظت محمداً بنسيج العنكبوت
سبحانك سبحانك أنت أنت الحي الذي لا تموت

* * *

وأشهد أن لا إله إلا الله.

عن محمد بن كعب القرظي قال: قرأت في التوراة أو قال: في صحف إبراهيم- عليه السلام- فـوجدت فيها: يقول الله: «يا ابن آدم مـا أنصفتني، خلقتك ولم تكُ شيـئًا، وجعلتك بشرًا سويًا، خـلقتك من سلالة من طين، فجـعلتك نطفـة في قرار مكين، ثم خلقت النطفـة علقة، فـجعلت العـلقة مضـغة، فخلقت المضـغة عظامًا، فكسـوت العظام لحمًا، ثم أنشـأتك خلقًا آخر، يا ابن آدم فهل يقدر على ذلك غيري؟ ثم خففت ثقلك عن أمك حتى لا تتبرم بك ولا تتأذى، ثم أوحيتُ إلى الأمعاء أن اتسعي، وإلى الجوارح أن تَفـرَّقي، فاتسـعت الأمـعاء من بعـد ضيـقها، وتفـرقت الجوارح من بعـد تشبيكها، ثم أوحيت إلى الملك الموكل بالأرحام أن يخرجك من بطن أمك، فاستخلصك على ريشة من جناحه، فاطلعت عليك، فإذا أنت خَلْق ضعيف ليس لك سن تَقْطَع، ولا ضِـرس تطحن، فاستـخلصت لك في صدر أمك عرقًا يدرُّ لبنًا، باردًا في الصيف، حارًّا في الشتاء، واستـخلصته لك من بين جلد وعروق، ثم قذفت لك في قلب والدك الرحمة، وفي قلب أمك التحنن فهما يكدَّان عليك ويجهدان ويُربِّيانك ويغذِّيانك، ولا ينامان حتى ينوِّماك، يا ابن آدم لِمَ فعلت ذلك بِك؟ ألشيء استأهلت به مني أو لحـاجة استعنتُ بك على قضـائها؟ ابن آدم فلمـا قطع سنك وطحن ضرسك، أطعـمتك فاكـهة الصيـف في أوانها، وفـاكهة الشـتاء في أوانهـا، فلما أن عـرفت أني ربك عصيتني، فادعني فإني قريب مجيب واستغفرني فإني غفورٌ رحيم[1].

* * *

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية. ملحوظة: ما ورد في هذا المصنف من أخبار أهل الكتاب مما وافق شرعنا، اقتديت في إيراده بأئمة السلف، كالإمام أحمـد في كتاب الزهد، وهذا لا يكون في مصنفاتي إلا قليلاً ..

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه، قال له ربه : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

أيا عبد كم يراك الله عاصيًا حريصًا على الدنيا وللموت ناسيا
أنسيت لقاء الله واللحد والثرى ويومًا عبوسًا تشيب فيه النواصيا
لو أن العبد لم يلبس ثيابًا من التقى تجرَّد عريانًا ولو كان كاسيا
لو كانت الدنيا تدوم لأهلها لكان رسول الله حيًّا وباقيا
ولكنها تفنى ويفنى نعيمها وتبقى الذنوب والمعاصي كما هيا

أما بعد:

فجدير بمَن الموت مصرعه، والدود أنيسه، والقبر ونيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقيامة موعده، والحوض مورده، والصراط مروره، والجنة والنار مقره ومستقره، ألا يكون له فكر ولا ذكر إلا للموت .

ولو أننا ذكرنا الموت وأعددنا له عدته، ما كان هذا حالنا من الذل والهوان والضعف والهزيمة .

واليوم نعيش مع (ملك الموت والأنبياء عليهم السلام) عسى أن نرعوي عن التعلق بالدنيا ونسيان الموت .

وأهدي مؤلفي هذا لأمي وأبي وزوجي وولدي شفاء وصهيب .

دكتور/ مصطفى مراد صبحي
المدرس بكلية الدعوة الإسلامية

* * *

من أراد واعظًا فالموت يكفيه

أليس الموت يأتيك؟

لما خرج الرشيد إلى مكة ماشيًا من أجل يمينه فرش له من العراق إلى الحجاز اللبود والمرعزي فاستند يومًا وقد تعب إلى ميل، فإذا بسعدون المجنون قد عارضه، فقال:

هبْ الدنيا تواتيكا ... أليس الموت يأتيكا
فما تصنع بالدنيا ... وظل الميل يكفيكا
ألا يا طالبَ الدنيا ... دع الدنيا لشانيكا
كما أضحكك الدهر ... كذلك الدهر يُبكيكا

فشهق الرشيد شهقة وخر مغشيًا عليه، حتى فاتته ثلاث صلوات ثم قال:

الحمد لله ثم الحمد لله ... ماذا على الأرض من ساه ولاه
ماذا يعايش ذو عينين من عَجَب ... يوم الخروج من الدنيا إلى الله

* * *

ما كنت إلا في غرور

ولما بنى الرشيد قصره المشيد أرسل إلى أبي العتاهية وقال: صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا، فقال:

عش ما بدا سالمًا ... في ظل شاهقة القصورِ
فإن النفوس تقعقعت ... لدى الروح وفي البكورِ

يسعى إليك بما اشتهيت بزفير حشرجه الصدورِ
فهناك تعلم موقنًا ما كُنت إلا في غرورِ

فبكى الرشيدُ بكاءً مرًّا، وقال يحيى البرمكي: بعث إليك أمير المؤمنين لتشرحه فأحزنته. قال هارون: دعه، فإنه قد رأى غرورنا، فنهانا عن ذلك .

* * *

موعظة عند القبور

حكي عن ابن السماك رحمه الله، أنه قد حضر يومًا جنازة، فلما نظر إلى القبور بكى وقال لأصحابه: معشر الإخوان ألا متأهب لموت يوصف له ويراه أمامه، ألا مستعد ليوم فقره ونزوله إلى حفرته وقبره، ألا شباب عازم بارز لمنيته، ألا من ليس يُغَيِّره شباب سنه، ولا شدة قوة، ألا شيخ قد بادر لانقضاء مدته، فشمَّر السير فيما بقي من رمقه، ماذا ينتظرُ من دفن أباه وَقَبَرَ أمه وأخاه؟ ما فرح من القبر مأواه، والتراب فراشه وغطاه.

* * *

حان الموت

يا نفس توبي فإن الموت قد حانا واعصِ الهوى فالهوى ما زال فتانا
أما ترين المنايا كيف تلفظنا لفظًا فتلحق أخرانا بأولانا
في كل يوم لنا ميت نشيعه ننسى بمصرعه آثار موتانا
يا نفسُ ما لي والأموال أتركها خلفي وأخرج من دنياي عريانا
أبعد خمسين قد قضيتها لَعِبًا قد آن أن تقتصري قد آنا قد آنا
ما بالنا نتعامى عن مصائرنا ننسى بغفلتنا من ليس ينسانا

نزداد حرصًا وهذا الدهر يزجرنا ... كأن زاجرنا بالحرص أغرانا

أين الملوك وأبناء الملوك ومن ... كانت تخر له الأذقان إذعانا

صاحب بهم حَدَثَات الدهر فانقلبوا ... مستبدلين من الأوطان أوطانا

خلوا مدائن كان العز مفرشها ... واستفرشوا حُفراً وقيعانا

يا راكضًا في ميادين الهوى مَرحًا ... ورافلاً في ثياب الغي نشوانا

مضى الزمان وولى العمر في لعبٍ ... يكفيك ما قد مضى قد كانَ ما كانا

* * *

دع الحرص على الدنيا

عندما اجتمع هارون الرشيد بالبهلول قال له: عظني، فقال: بما أعظك؟ هذه قصورهم، وهذه قبورهم، ثم قال: كيف بك يا أمير المؤمنين إذا أقامك الحق تعالى بين يديه، وسألك عن النقير والفتيل، والقطمير، وأنت عطشان، عريان، جوعان، وأهل الموقف ينظرون إليك ويضحكون؟ فخنقته العبرة، وأمر له بصلة، فقال: ردها على من أخذتها منهم قبل أن لا تجد لهم شيئًا ترضيهم به ثم أنشد:

دع الحرص على الدنيا ... وفي العيش لا تطمع

ولا تجمع من مال ... فما تدري لمن تجمع

فإن الرزق مقسوم ... وسوء الظن لا ينفع

فقير كل ذي حرص ... غني كل من يقنع

* * *

حذارِ حذار من بطش الدنيا

دنيــــا يـا دنيــــا يا غــــادره	إليك عـني اليــوم يـا ســاحــره
لا لــذة أحـــــسن مـن لــذة	منبـــوذة من ذي يـد قـــادره
يا عبــد كم عـانيت من عــبره	فــاثبـــري إن كـنت لي نـاظره
مـــا لذة إلا وقـــد نلتـــهـــا	لـم يـبق إلا لــذة الآخــــره
الحــمـــد لله لقــد أصــبــحت	دنيـــاي لي على نفــسي زاجــره
طوبـى لمن كــانـت له عــزمـــة	مُـــخْلـص باطـنـه وظاهـره

* * *

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها

أبو العتاهية والرشيد

قال هارون الرشيد لأبي العتاهية: عظني .

قال: أخاف، قال: أنت آمن، فأنشد أبو العتاهية:

لا تأمن الموت فـي طَرْف ولا نَفَسٍ	إذا تستَّـرت بالحُـجَّـاب والحـرسِ
واعلم بأن سـهـام الموت قـاصـدة	لكـل مُــدَّرع منا ومُــتَّـــرسِ
ترجو النجاة ولم تسلك مســالكها	إن السـفـينة لا تجـري على اليـبسِ

* * *

يا غافل

ألا يا طويل السهو أصبحت ساهيًا وأصبحت مغترًّا وأصبحت لاهيًا
أفي كل يوم نحن نلقى جنازة وفي كل يوم نحن نسمع ناعيًا
وفي كل يوم منك نرثي لمعول وفي كل يوم نحن نسعد باكيًا
ألا أيها الباني لغير بلاغه ألا لخراب الدهر أصبحت بانيًا
ألا لزوال العمر أصبحت جامعًا وأصبحت مختالاً فخوراً مباهيًا
كأنك قد وليت عن كل ما ترى وخلقت من خلقته عنك ساليًا
ليبك رسول الله من كان باكيًا ولا تنسى قبراً بالمدينة ثاويًا
جزى الله عنا كل خيراً محمداً فقد كان مهديًا ولنا هاديًا
ولم تر الذكرى بما هو أهله إذا كنت للبر المطهر ناسيًا
أتنسى رسول الله أفضل من مشى وآثاره المجدين كما هيا
وكان أبر الناس بالناس كلهم واكرمهم بيتًا وشعبًا وواديًا
تكدر من بعد النبي محمد عليه سلام الله ما كان صافيًا
فكم من منار كان واضعهُ لنا ومن علم أرسى وأصبح عافيًا
ركنا إلى الدنيا الدنية بعد وكشفت الأطماع منا المساويا
وإنا لنرمي كل يوم بعبرة نراها فما نزداد إلا تماديًا
إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى تقلَّب عريانًا ولو كان كاسيًا
أخي كن على بأس من الناس كلهم جميعًا وكُن ما عشت لله راجيًا
ألم تر أن الله يكفي عباده وحسب عباد الله بالله كافيًا
وكم من هماتٍ عليك لمستها من الناس يومًا ولمت الأفاعيا
أخي قد أبى بخلي وبخلك أن يرى لذي فَاقة مني ومنك مواسيا
كلنا خلقنا للفناء وأيننا أن موت الدنيا له فانيًا

أبى المـوت إلا أن يكون عـن تؤدى — من الخـلق حرًّا حينمـا كان لاقـيا
حسمْت المُنَى يا موت حسمًا مُبرحًا — وعلَّمت يا مـوت البكاء البـواكـيا
وَمَـزَّقْـتنا يا مـوت كل ممزق — وعـرفـتنا يا مـوت منك الدواهيا

* * *

معاتبة النفس

ونفس هـذا الذي تأتيـه عـجب — علـم وعـقل لا نـسك ولا أدبُ
وصف النفاق كما في النفس نسمعهُ — علم اللسان وجهل القلب والسببُ
حب المتاع وحب الجاه فانتبـهي — من قبل أن تطوى عليك الصحف والكتبُ
وتصـبحين بقـبـرٍ لا أنيس له — الأهل والصـحب لما ألحدوا ذهبـوا
وخلفـوك وما أسلفت من الملل — المال مستأجر والكسب مصطحبُ
واستقني أن بعـد الموت مجتمعًا — معـاملين فتأتي العجم والعربُ
والخلق طراً ويجزيهم بما عـملوا — في يوم لا ينفع الأمْوال والحسبُ
وأخشى رجوعًا إلى عدل توعد من — لا يتقيه بنار حشـوها الغضبُ
وقـودها الناس والحجارة حـامية — لا تنطفئ أبـدًا الآبار تـلتـهبُ
والبعد عن جنة الخـلد التي حشيت — بالطيـبات ولا مـوت ولا نصبُ
فيـهـا الفـواكـه والأنهار جارية — والنور والحـور والولدان والقـببُ
وهذه الـدار دار لا بقـاء لهـا — لا يفـتنك منـهـا الـورق والذهبُ
والأهل والمال والمركـوب تركبـهَ — والثـوب تلبـسه فـالكل ينقلبُ
لا بارك الله في الدنيا سوى عوض — منهـا يُعـدُّ إذا مـا عُـدت القُرَبُ
يريد صـاحبـه وجـه الإله به — فـمـا لغير وجه الله فـاجتنبـوا
وصلوا عـلى المختـار سـيدنا — والآل والصحب قوم حبهم يجبُ

* * *

رحلة المصير

يا من يتابع سيد الثقلان نحن للمهيمن صادق الإيمان
واعلم بأن الله خالقك الذي سواك لم يحتج إلى إنسان
خلق البرية كلها من أجل أن تدعوه بالإخلاص والإذعان
قد أرسل الآيات مخوفًا لعباده كي يخلص الثقلان
وأبان للإنسان كل طريقه كي لا يكون له اعتذار ثان
ثم اقتض أمرًا ونهيًا علها تتميز التقوى عن العصيان
وولدت مفطورًا بفطرتك التي ليست سوى التصديق والإيمان
وعليك بالتكليف أنت مخير وأمامك النجدان مفتتحان
فعملت ما تهوى وأنت مراقب ما كنت محجوبًا عن الذيان
ثم انقض العمر الذي تهابه وبدأت في ضعف وفي نفحان
ودنه الفراق ولات حتى تهرب أين المفر من القضاء الداني؟
واستل روحك والقلوب تقطعت حزنًا وألقت دمعها العينان
فاجتاح أهل الدار حزن بالغ واحتاج من حضروا من الجيران
فالبنت عبرى كئيبة والدمع يملأ ساحة الأجفان
والزوج ثكلى والصغار تجمعوا يتطلعون تطلع الحيران
والابن يدأب في جهازك كاتمًا شيئًا من الأحزان والأشجان
وسرى الحديث وقد تسأل بعضهم أو ما سمعتم عن وفاة فلان
قالوا سمعنا والوفاة سبيلنا غير المهيمن كل شيء فان
وأتى الحديث لوارثك فأسرعوا من كل صوب للحطام الفان
وأتى المُغَسِّل والمُكَفِّن قد أتى ليحلوك بحلة الأكفان
ويجردونك من الثياب وينزعوا عنك الحرير وحلة الأكتان

صلوا عليك وركبوك بمركب فوق الظهور يحف بالأحزانِ
حتى إلى القبر الذي جهَّزوا وضعوك عند شفيره بحنانِ
ودنا الأقارب يرفعونك بينهم للحدِ كي تُمسي مع الديدانِ
وسكنت لحداً قد يضيق لضيقه صدر الحليم وصابر الحيوانِ
وسمعت قرع نعلهم من بعدما وضعوك في البيت الصغير الثاني
فيه الظلام كذا السكون مخيم والروح وجاءك الملكانِ
وهنا الحقيقة والمحقّق قد أتى هذا مكان النصر والخذلانِ
إن كنت في الدنيا لربك مخلصًا تدعوهُ بالتوحيد والإيمانِ
فتظل ترفل في النعيم مُرفَّهًا بفسيح قبر طاهر الأركانِ
ولك الرفيق عن الفراق مُسليًا يغني عن الأحباب والأحزانِ

* * *

إلى المغرورين

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازمُ
وشغلك فيما تكره عنه كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ
وفعلك فعل الجاهلين بزبهم وعمرك في النقصانِ بل أنت ظالمُ
فلا أنت في الأيقاظ يقظان حازمٌ ولا أنت في النُّوام ناجٍ سالمُ
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى كما سر بالذات في النوم حالمُ
فلا تحمد الدنيا ولكن قدمّها ولا تكثر في العصيان إنك ظالمُ

* * *

أيها الساهي

جهول ليس تنهاه النواهي ... ولا تلقاه إلا وهو ساهي
يسر بيومه لعبًا ولهوًا ... ولا يدري وفي غداه الدواهي
مررت بقصره فرأيت فيه ... عجبًا من زاجر وناهي
بدا فوق السرير فقلت من ذا ... فقالوا ذلك الملك المُبَاهِي
رأيت بالباب سور وجوارٍ ... ينحن وهن يكسرن الملاهي
تَبَيَّنْ أي دار أنت فيها ... ولا تسكن إليها وادرِ ما هي

* * *

لا تخدعنك

عجبًا لأمنك والحياة قصيرة ... وبفقد ألفٍ لا تَجْزَعُ
أفقد رضيت بأن تعلل بالمنى لا ... وإلى المنية كل يوم تُدْفَعُ
تخدعنك بعد طول تجارب ... دنيا تكشف للبلاد وتصرعُ
أحلام نوم أو كظل زائل ... إن البيت بمثلها لا يُخدعُ
وتزوَّد ليوم فقرك زادًا ... ألغيرِ نفسك لا أبًا لك تَجْمَعُ

* * *

الدنيا نعيبها ونتنافس فيها

والناسُ كالحبِّ والدنيا في نَصَب — للعالمين وكفَّ الموت يُلهيها
فلا الإقامةُ تُنجِّي النفسَ من تَلَف — ولا الفرار من الأجداث يُنجيها
وللنفوس وإن كانت على وَجَل — من المنايا آمال تقوِّيها
فالمرء يبسطها والدهر يقبضها — والبعر ينشرها والموت يطويها
وكل نفس لها زود يصحبها — من المنية يومًا أو يُعشّيها
تلك المنازل في الآفاق خاوية — أصبحت خرابًا وذاق الموت بانيها
كم من عزيز سيلقى بعد عزته — ذُلاً وضاحكة يومًا سيبكيها
وللمنايا تُربِّي كل مرضعة وللحساب — برى الأرواح باريها
لا تبرح النفس تنعى وهي سالمة — حتى يقوم ينادي القوم ناعيها
ولن تزال طوال الدهر ظاعنة — متى يقيم بواد غير واديها
أفنى القرون وأفنى كل ذي عُمُر — كذا الموت يفني كلَّ ما فيها
فالموت أصدق بالدنيا وزخرفها — والناس في غفلة عن ترك ما فيها
لو أنها عَقَلت ماذا يُراد بها — ما طاب عيش لها يومًا ويلهيها
فاعرضْ أصول التقى ما دُمت مُجتهدًا — واعلم بأنك بعد الموت لاقيها
تجني ثمارًا غدًا في ديار مكرمة — لا من فيها ولا التكبير يأتيها
فيها نعيم مقيم دائمًا أبدًا — بلا انقطاع ولا من يدانيها
الأذن والعين لم تسمع ولم ترهُ — ولم يدرك في قلوب الخلق ما فيها
فيا لها من كرامات إذا حصلت — ويا لها من نفوس سوف تحويها
وهذه الدار لا تغررك زهرتها — فعن قريب ترى معجبك زاويها
فاربأ بنفسك لا يخدعك لامعها — من الزخارف واحذر من دواهيها
خدّاعة لم تدم يومًا على أحد — ولا استقرت على حال لياليها

فـانظر وفكّـر غـدت دوي طيش وكم أصـابت بسهـم الموت أهليهـا
اعـتـز قـارون بدنـيـاه في أسـقف وكـان من خـمرها يـقاوم ذاتيـهـا
يبـيت ليلهُ سـهـران منشـغـلاً في أمـوالك في الـهم يغـديهـا
وفي النهـار لقـد كـان مـصيبـه تخـر في قلـب خـر فـيـخيـهـا
فمـا استـقامت له الدنيـا ولا فتلت من الوداد ولم ترحـم مـحبـيـهـا
ثم الصـلاة على المعـصوم سـيدنا أزكى البـرية دانيـهـا وقـاصيـهـا

* * *

ملك الموت

ملك الموت- عليه السلام- يوصف بما يوصف إخوانه من الملائكة الكرام البررة التي جمعها الناظم في قوله[1] :

القول بالملائك الكرام ... فريضة لصحة الإسلام
وهم عباد الخالق القهار ... قد خُلقوا من خالص الأنوار
حياتهم بالذكر والتسبيح ... وما لهم في الذكر من تبريح
قاموا صفوفًا للعزيز الماجد ... يدعونه على مقام واحد
قد طهروا عن شهوة العصيان ... وعن شرور النفس والشيطان
وما لهم من نعمة الجنان ... حظ ولا من رؤية الرحمن
فمنهم كاتب أعمال الورى ... ومنهم حافظ سُكَّان الثرى
ومنهم مُوكَّل بالرزق ... يوصِّل أو يزوى بأمر الحق
فوصف حال القوم بالتفضيل ... في صحف الآثار والتنزيل
ونفيهم بالجحد والإنكار ... كفر صريح موجب للنار
ومن جرى لسانه بالطعن ... والنقص فيهم فهو أهل اللعن

* * *

كذا لجنس الإنس فضل باد ... بالعلم والفطنة والجهاد
على كرام الملأ العباد ... من ساكن السبع العلا الشداد
فالرسل الكرام من نسل البشر ... أفضل من رسل أولئك النفر
فموعد اللقاء والنعيم ... للإنس دون الملك الكريم

* * *

(١) أرجوزة الهروي كما في الحبائك (ص١٩٧) .

اسمه: ورد أنَّ اسمه عزرائيل .

ولم يذكر اسم ملك الموت في حديث صحيح، وإنما ورد في أخبار أهل الكتاب، وكذا في حديث ضعيف أخرجه ابن النجار في تاريخه قال: أخبرنا يوسف بن المبارك بن الكامل الخفاف قال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد أخبرني محمد بن عبد الباقي الأنصاري قال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد حدثني أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب وقال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد حدثنا القاضي أبو العلاء محمد بن علي الواسطي وقال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد حدثني أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن المليح السجزي، وقال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد حدثني علي بن محمد الهروي، وقال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد حدثني عبد السلام بن صالح، وقال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد حدثني علي بن موسى الرضا، وقال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد حدثني أبي موسى بن جعفر، وقال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد حدثني أبي جعفر بن محمد وقال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد حدثني أبي محمد بن علي وقال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد حدثني أبي علي بن الحسين وقال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد حدثني أبي الحسين ابن علي وقال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد حدثني أبي علي بن أبي طالب، وقال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد حدثني رسول الله ﷺ ، وقال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد حدثني جبريل، وقال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد حدثني ميكائيل وقال: أشهد بالله وأشهد لله، لقد حدثني عزرائيل، وقال: أشهد بالله وأشهد لله، أن الله - تعالى - قال: «مدمن خمر كعابد وثن»[١].

* * *

(١) أخرجه ابن النجار، وأورده المتقي الهندي في كنز العمال رقم (١٣١٩٧) .

قوة ملك الموت

قال مُجاهد: جُعلت الأرض لملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث شاء، جُعلت له أعوان يتوفون الأنفس، ثم يقبضها منهم[١] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن لملك الموت حربة مسمومة طرف لها بالمشرق، وطرف لها بالمغرب يقطع بها عرق الحياة»[٢] .

وعن معاذ رضي الله عنه قال: « إن لملك الموت حربة تبلغ ما بين المشرق والمغرب، فإذا انقضى أجل عبد من الدنيا ضرب رأسه بتلك الحربة، وقال: الآن يُزاد بك عسكر الموت»[٣] .

ولا تتعجب لهذه القوة التي أعطاها الله تعالى لملك الموت، فقد آتى ملائكة آخرين قوة مثل هذا أو أكثر .

قال رسول الله ﷺ : **«إن لله ملكًا لو قيل له: التقم السموات السبع والأرضين بلقمة واحدة لفعل، تَسْبيحهُ: سبحانك حيث كنت»**[٤] .

وقد أشارت بعض الروايات إلى أن هذا الملك من حملة العرش .

فعن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : **«أذن لي أن أُحدِّث عن ملك من حملة العرش، رجلاه في الأرض السفلى، وعلى قرنه العرش، وبين شحمة أذنه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام يقول ذلك الملك: سبحانك حيث**

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/٢٨٦)، وفيه جهالة رجل .

(٢) أخرجه إبن عساكر .

(٣) أخرجه أبو نعيم (٥/٢١٤)، وأبو الشيخ في العظمة رقم (٤٠٧٤) .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/١١٤٧٦)، عن ابن عباس، وحسنه السيوطي، بينما ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٩٥٦)، والضعيفة (٣١٩٩) .

كنت»[١] .

وهذا الملك يقال له: الديك عليه السلام.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن الله أذن لي أن أُحَدِّث عن ديك قد مرقت رجلاه الأرض، ورأسه مثنيَّة تحت العرش، وهو يقول: سبحانك ما أعظمك، فيرد عليه: ما علم ذلك من حلف بي كاذبًا**»[٢] .

* * *

السبب في تولي ملك الموت قبض الأرواح

وكل الله سبحانه ملك الموت بتوفي الأنفس فقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١] ، وكان السبب في أمره بتولي قبض الأنفس ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: لما أراد الله عز وجل أن يخلق آدم، بعث ملكًا من حملة العرش يأتي بتراب من الأرض، فلما هوى ليأخذ قالت الأرض: أسألك بالذي أرسلك أن لا تأخذ مني اليوم شيئًا يكون للنار منه نصيب غدًا فتركها، فلما رفع إلى ربه قال: ما منعك أن تأتي بما أمرتك؟ قال: سألَتْنِي بك فعظَّمت أن أرد شيئًا سألني بك، فأرسل لها آخر، فقال مثل ذلك حتى أرسلهم كلهم، فأرسل ملك الموت، فقالت له مثل ذلك، فقال: إنَّ الذي أرسلني أحق بالطاعة منك، فأخذ من وجه الأرض كلها من طيبها وخبثها، فصار حمأً مسنونًا، فخلق منه آدم[٣] .

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب السنة رقم (٤٧٢٧)، وأبو يعلى، قال الهيثمي (١/ ٨٠): ورجاله رجال الصحيح، وصححه السيوطي في الحبائك (ص٥١).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/٢٩٧) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وكذا الهيثمي (٨/١٣٣) .

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر وابن أبي حاتم . انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (١/٤٦، ٤٧) .

أبو البشر وملك الموت عليهما السلام

سيدنا آدم عليه السلام نبي مُكَلَّم خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته، ونفخ فيه من روحه، وجعله أبًا للبشر.

وشُغل آدم بملك الموت حتى إنه طلب من ربه رؤيته.

فعن عكرمة قال: رأيت في بعض صحف شيث أن آدم عليه السلام قال: يا ربِّ أرني ملك الموت حتى أنظر إليه، فأوحى الله تعالى إليه: إنَّ له صفات لا تقدر على النظر إليها، وسأنزله عليك في الصورة التي يأتي فيها الأنبياء المصطفين، فأنزل الله عليه جبريل وميكائيل، وأتاه ملك الموت في صورة كبش أملح قد نشر من أجنحته أربعة آلاف جناح، منها جناح جاوز السموات والأرض، وجناح جاوز الأرضين، وجناح جاوز أقصى المشرق، وجناح جاوز أقصى المغرب، وإذا بين يديه الأرض بما اشتملت عليه من الجبال والسهول والغياض والجن، والإنس، والدواب وما أحاط بها من البحار، وما علاها من الأجواء في ثغرة نحره كالخردلة في فلاة[1] من الأرض، وإذا له عيون لا يفتحها إلا في مواضع فتحها، وأجنحة لا ينشرها إلا في مواضع نشرها، وأجنحة للبشرى ينشرها للمصطفين، وأجنحة للكفار فيها سفافيد وكلاليب ومقاريض، فصُعق آدم صعقة لبث فيها إلى مثل تلك الساعة من اليوم السابع، ثمَّ أفاق وكأن في عروقه الزعفران»[2].

* * *

(١) فلاة: صحراء.

(٢) التذكرة للقرطبي (ص٦٨، ٦٩)، ونسبه لابن ظفر في النصائح.

لقاءان بين آدم وملك الموت عليهما السلام

١- اللقاء الأول: بعد أن بلغ آدم تسعمائة وستين عامًا .

٢- واللقاء الثاني: بعد أن بلغ آدم ألف سنة .

وهو اللقاء الأخير بينهما، وفيه قُبض آدم. وكان آدم عليه السلام قد أُخبِرَ أن عمره ألف عام، وهو أول مخلوق يعلم مقدار عمره وهو حي.

لكنَّ لما نظر في ذريته رأى رجلاً من أكثر ذريته ضياءً ونورًا، فسأل عنه، فقيل: داود، فسأل عن عمره، فقيل: ستون سنة، فماذا طلب آدم من ملك الموت؟ يجيبنا عن هذا النبي ﷺ.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم، ونفخ فيه الروح، عطس فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: يرحمك الله يا آدم! اذهب إلى أولئك الملائكة؛ إلى ملأ منهم جلوس، فَقُل: السلام عليكم، قالوا: وعليك السلام ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه، فقال: إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم، فقال الله له ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت، قال: اخترت يمين ربي يَمينٌ مباركةٌ، ثم بسط فإذا فيها آدم وذُرِّيَّتُه، فقال: أي ربِّ ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فإذا كل إنسان مكتوب عُمره بين عينيه، فإذا فيهم رجل أضوؤهم، أو من أضوئهم، قال: يا رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود، وقد كتبت له عمر أربعين سنة(*) ، قال: يا ربِّ زِد في عمره، قال: ذاك الذي كتبت له، قال: أي ربِّ فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة، قال: أنت وذاك، ثم أُسكن الجنة ما شاء الله، ثم أُهبط منها؛ فكان آدم يَعُدُّ لنفسه، فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد

(*) الصواب: له عمر ستين سنة، والخطأ من أحد الرواة .

تعجلت، قد كُتب لي ألف سنة، قال: بلى ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة، فجحد فجحدت ذُريته، ونسي فنسيت ذُريته، فمن يومئذٍ أُمِر بالكتاب والشهود»(١) .

وفي رواية: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نَسَمة هو خالقها إلى يوم القيامة، ثم جعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي ربِّ من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذُرِّيتك، فرأى رجلاً منهم أعجبه نور ما بين عينيه، فقال: أي ربِّ من هذا؟ قال: رجل من ذريتك في آخر الأمم يُقال له: داود، قال: أي ربِّ كم عمره؟ قال: ستون سنة، قال: فزده من عمري أربعين سنة، قال: إذن يُكتب ويُختم ولا يُبدَّل، فلمّا انقضى عُمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ فجحد فجحدت ذُرِّيته، ونسي آدم فنسيت ذُرِّيته، وخطئ آدم فخطئت ذُريته»(٢) .

وجحود آدم لما أخبره به ملك الموت عليه السلام كان نسيانًا كما في الحديث نفسه وليس إنكارًا وتكذيبًا.

ومات آدم عليه السلام وعمره ألف سنة، فرأى ولده وولد ولده . . .

وبعد ألف عام كاملة غير منقوصة انتقل آدم إلى عالم البرزخ .

* * *

(١) رواه أبو داود، وابن أبي عاصم، والحاكم، وابن حبان، وابن سعد، وصححه الحاكم والترمذي .

(٢) رواه الترمذي، وهو في صحيح الجامع (برقم ٥٢٠٨، ورقم ٥٢٠٩) .

إدريس عليه السلام وملك الموت

سيدنا إدريس عليه السلام أول من خطَّ بالقلم، وأول من خاط الثياب، ولبس المخيط، وأول من نظر في علم النجوم والحساب.

سُمِّيَ إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى، أي الكتب والصحف السماوية التي وُجدت في عصره. رفعه الله مكانًا عليًا قال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧] يعني إلى السماء الرابعة كما ثبت في الصحيحين في حديث الإسراء أن النبي ﷺ مرَّ به في السماء الرابعة.

* * *

تُقْبض روحه في السماء

وعندما رفع الله تعالى إدريس عليه السلام قبض ملك الموت عليه السلام روح إدريس هناك.

روى ابن جرير بسنده عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعبًا وأنا حاضر فقال له: ما قول الله تعالى لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، فقال كعب: أما إدريس فإنَّ الله أوحى إليه: إني أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بني آدم- لعله من أهل زمانه- فأحبَّ أن يزداد عملاً، فأتاه خليل له من الملائكة فقال: إن الله أوحى إليَّ كذا وكذا، فكلِّمْ ملك الموت فليؤخرني حتى أزداد عملاً، فحمله بين جناحيه ثمَّ صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت منحدرًا، فكلَّم ملك الموت الذي كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ قال: هو ذا على ظهري، فقال ملك الموت: يا للعجب، بُعِثت، وقيل لي: اقبض روح إدريس في السماء

الرابعة، فجعلت أقول: كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض؟ فقبض روحه هناك، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

إنه سار ذات يوم في حاجة فأصابه وَهَج الشمس، فقال: يا رب أنا مشيت يومًا، فكيف بمَن يحملها خمسمائة عام في يوم واحد! اللهم خفف عنه من ثقلها - يعني الملك الموكل بالشمس- يقول إدريس: اللهم خفف عنه من ثقلها، واحمل عنه من حرها، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس والظل ما لا يَعْرِف، فقال: يا رب خلقتني لحمل الشمس، فما الذي قضيت فيه؟

فقال الله تعالى: أما إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرَّها فأجبته .

فقال: يا رب اجمع بيني وبينه، واجعل بيني وبينه خلة، فأذن الله له حتى أتى إدريس، وكان إدريس عليه السلام يسأله فقال: أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت، فاشفع لي إليه ليؤخر أجلي، فأزداد شكرًا وعبادة، فقال الملك: لا يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها. فقال إدريس: قد علمت ذلك، ولكنه أطيب لنفسي، قال: نعم، ثم حمله على جناحه فرفعه إلى السماء، ووضعه عند مطلع الشمس، ثم قال لملك الموت: لي صديق من بني آدم تشفع بي إليك لتؤخر أجله، قال: ليس ذلك إليَّ ولكن إن أحببت علمه أعلمته متى يموت، قال: نعم، ثمَّ نظر في ديوانه، فقال: إنك لتسألني عن إنسان ما أراه يموت أبدًا.

قال: وكيف؟ قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس .

قال: فإني أتيتك وتركته هناك .

قال: انطلق فما أراك تجده إلا وقد مات، فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء، فرجع الملك فوجده ميتًا(١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: « أن ملكًا استأذن ربه أن يهبط إلى إدريس فأتاه فسلَّم عليه، فقال له إدريس: هل بينك وبين ملك الموت شيء، قال: ذاك أخي من الملائكة، قال: هل تستطيع أن تنفعني عنده بشيء، قال: أما أن يُقدمه لك فلا. ولكن سأكلمه لك فيرفق بك عند الموت، فقال: اركب بين جناحي، فركب إدريس فصعد به إلى السماء العليا، فلقي ملك الموت وإدريس بين جناحيه، فقال له الملك: إن لي إليك حاجة، قال: قد علمت حاجتك تكلمني في إدريس، وقد مُحِيَ اسمه، ولم يبقَ من أجله إلا نصف طرفة، فمات إدريس بين جناحي الملك»(٢) .

* * *

(١) تفسير القرطبي، آية مريم (٥٧) .

(٢) التحرير المرسّخ في أحوال البرزخ، للصالحي (ص٦٧) .

إدريس يطلب من ملك الموت قبض روحه

وقال وهب بن مُنَبِّه: كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يُرفع لأهل الأرض في زمـانه، فـعجب منه المـلائكة واشتـاق إليـه ملك الموت، فاسـتأذن ربه في زيارته فأذِنَ له، فـأتاه في صورة آدمي، وكـان إدريس عليه السلام يصوم النهار، فلما كـان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل. ففعل به ذلك ثلاث ليال، فأنكره إدريس، وقال له: من أنت؟ قال: أنا ملك الموت، استـأذنت ربي أن أصحـبك فأذِنَ لي، فـقال: إن لي إليك حـاجة، قال: ومـا هي؟ قال: أن تقـبض روحي، فأوحى الله تـعالى إليـه أن اقبض روحه؛ فقبضه وردَّه الله إليه بعـد ساعة، وقال له ملك الموت: ما الفائدة في قبض روحك؟ قال: لأذوق كرب الموت، فأكون له أشد استعدادًا، ثم قال له إدريس بعد سـاعة: إن لي إليك حـاجة أخـرى، قال : ومـا هي؟ قال: أن ترفـعني إلى السـمـاء فـأنظر إلى الجنة والنار، فـأذن الله له في رفـعـه إلى السموات، فرأى النار فصُعِق، فلما أفاق قال: أرني الجنة، فأدخله الجنة، ثم قال له ملك الموت: اخرج لتعود إلى مقرك، فتعلق بشجرة، وقال: لا أخرج منها، فبعث الله تـعالى بينهما ملكًا حكمًا، فقـال: ما لك لا تخرج؟ قال: لأن الله تعالـى قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥ ، والأنبياء:٣٥ ، والعنكبوت:٥٧]، وأنا ذقتـه، وقـال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، وقـد وردتها، وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨] ، فكيف أخرج؟

قال الله تبارك وتعالى لملك الموت: بإذني دخل الجنة وبأمري يخرج.

قـال القرطبـي: يجـوز أن يكون الله أعلم هذا إدريس، ثم نزل القـرآن

به[١] فوقع على لسانه موافقًا لما جاء في القرآن المجيد كما حدث لعمر رضي الله عنه، عندما وافق القرآن في عشرين موضعًا .

* * *

(١) تفسير القرطبي، سورة مريم آية (٥٧)، وقصص الأنبياء للثعلبي .

شيخ المرسلين نوح عليه السلام وملك الموت

سيدنا نوح عليه السلام شيخ المرسلين وأكبر الأنبياء وأطولهم عمراً، قيل: إنه أول نبي من أنبياء الشريعة .

- وأول نذير عن الشرك .

- وأول من عصته أمته لردهم دعوته .

- وأهلك الله أهل الأرض كلهم بدعائه - عدا المؤمنين به - .

- ولم يبالغ أحد من الرسل في ألوان وأساليب الدعوة ووسائلها مثل ما بالغ .

- وسمَّاه ربه عبداً شكوراً .

- وأكرمه بالسلامة والبركة .

- وبارك في عمره حتى جعله أطول البشر عمراً . كان سِنّه يوم بُعث خمسين سنة، وقيل: ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل: أربعمائة وثمانين سنة .

وقال عون بن أبي شداد: عاش نوح بعد الطوفان ألف سنة إلا خمسين عامًا، وقبله ثلاثمائة وخمسين سنة، فيكون عمره ألفًا وثلاثمائة.

وورد في قول ابن عباس: أن نوحًا عليه السلام عاش قبل البعثة أربعمائة وثمانين سنة، ثم بعث في قومه ألف سنة، إلا خمسين عامًا، ثم عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة، فيكون عمره ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة (١٧٨٠سنة) . ومع طول عمره قيل له لما احتضر: كيف وجدت الدنيا؟ قال: كبيت له بابان: دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر[1] .

---

(١) قصص الأنبياء، المسمى عرائس المجالس للثعلبي .

أطول الناس عمرًا يموت!

وحضر أولاد نوح- سام وحام ويافث - عند أبيهم وهو على فراش الموت، فأوصى ولده سامًا، ليبلغ إخوانه ويعمل بالوصية:

* * *

قصة وصية نوح عليه السلام

ولنستمع إلى وصية الموت لنوح عليه السلام من سيد الخلق ﷺ:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جُبة سيحان مزرورة بالديباج، فقال: ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس أو قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس، ويرفع كل راع ابن راع، قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال: «لا أرى عليك لباس من لا يعقل». ثم قال: «إن نبي الله نوحًا عليه السلام، لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية: آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووُضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مُبهمة لقصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإنَّ بها صلات كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر»!

قال: قلت: أو قيل: يا رسول الله، هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: «لا»، قال: هو أن يكون لأحدنا حُلة يلبسها؟ قال: «لا»، قال: هو أن يكون لأحدنا دابة

يركبها؟ قال: «لا»، قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «لا»، قلت: أو قيل: يا رسـول الله، فما الكبـر؟ قال: «سَفَه الحق، وغمط الناس»(١) .

* * *

معاني الكلمات:

صاحبكم وضع كل فارس ابن فارس: يريد النبي ﷺ .

مزرورة بالديباج: أزرارها من الديباج وهو نوع من الحرير .

صلات: جمع صلة والمراد أنها تصل كل مقطوع .

سَفَه الحق: رده وإنكاره .

وغمط الناس: احتقارهم والاستهزاء بهم .

هذه القصة التي نحن بصدد شـرحها تشير إلى أن أعرابيًا قَدِمَ على النبي ﷺ في ثوب به حرير وأظهر علامات الكبر، وافتخر بثيابه وقوته فأخذ النبي ﷺ بمجامع جبتـه منكرًا عليه تكبره وتبختره، مـذكِّرًا له بفضل التواضع وذم الكبر، وكـعادة النبي ﷺ في كمـال الحكمة في الدعـوة إلى الله، والوصول إلى المقـصود بأيسـر السُّبل وأحلى الطُّرق، وأجـمل الأساليب عـرض على الأعرابي وصـية نوح لولده على فـراش الموت حتى لا ينسـى الأعرابي هذه الوصية، وحتى يعمل بما فيـها ولا تغيب عن عقله بُرهة من الزمن، فبيَّن له أن رسول الله نوحًا، عليـه وعلى رسولنا الصلاة والسـلام، لما حضره الموت

---

(١) أخرجه أحمد (٢/١٦٩، ١٧٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٢٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٢١٩): رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد ثقات. وأخرجه البخـاري في الأدب المفرد (٥٤٨)، قـال الشيخ أحـمد شاكـر في تحقـيقه للمـسند رقم (٦٥٨٣): إسناده صحيح .

أمر ولده باثنتين، ونهاه عن اثنتين، أمره بلا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده قولاً وعملاً وسلوكًا .

ورسم له للوصية بلا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده صورة في الذهن تبقى ولا تفنى، وتدوم ولا تنقطع، فأوضح بالمثال التصويري والمشهد الخيالي أنه لو وُضِعَت السموات السبع والأرضون السبع في كفة لرجحت بهن لا إله إلا الله لفضلها وعظمتها وقوتها .

* * *

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «**إن أفضل الدعاء: الحمد لله، وأفضل الذكر: لا إله إلا الله**»(١) .

أما وصية الأمر الثانية، فهي: سبحان الله وبحمده التي بها وصل كل مقطوع، وتقريب كل بعيد، وحُب العزيز الحميد، وثقل الحسنات في ميزان يوم القيامة، وحط الخطايا، وتكفير الذنوب، ومضاعفة الثواب .

قال رسول الله ﷺ : «**من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطت خطاياه ولو كانت مثل زَبَد البحر**»(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**من قال حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده، مائة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال، أو زاد عليه**»(٣) .

وعنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ : «**كلمتان خفيفتان على اللسان،**

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٦٢)، وابن ماجه (٢/ ١٢٤٩)، والحاكم (١/ ٥٠٣)، وصححه ووافقه الذهبي. وانظر: صحيح الجامع (١/ ٣٦٢) .

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ١٦٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٧١) .

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٧١) .

ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[١] .

أما وصيتا النهي: فهما وصية النهي عن الشرك، ووصية النهي عن الكبر هذه الوصية الأخيرة هي مقصود القصة، وهدف الحكاية، ومن ثَمَّ انطلق الأعرابي سائلاً عن تحديد معنى الكبر؟

أهو ارتداء الثياب الحسنة الجميلة؟ أم هو لبس النعل الحسنة غالية الثمن؟ أم هو ركوب الدابة الذلول؟ أم هو اجتماع الأصحاب؟ .

فأعلمه النبي ﷺ أن الكبر لا يعني هذه المعاني، بل هو رد الحق وإنكاره مع وضوحه، واحتقار الناس وازدراؤهم .

ولا جرم أن النبي ﷺ رسم للأعرابي صورة قوية في الذهن حفرها في الفؤاد العمل والقول، فأما العمل فإمساكه ﷺ بجبة الأعرابي إعلامًا وإعلانًا له بترك الكبر والتزام التواضع .

وعدم لبس الثياب التي بها ما يكسر قلب الفقير من حرير وذهب .

قال حذيفة رضي الله عنه: نهانا النبي ﷺ أن نشرب في آنية الذهب والفضة، وأن نأكل فيها، وعن لبس الحرير والديباج، وأن نجلس عليه[٢] .

وقال النبي ﷺ: **«من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»**[٣] .

وقال ﷺ: **«إنما يلبس الحرير من لا خلاق له[٤] في الآخرة»**[٥] .

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ١٦٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٢) .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٨٣٧)، وانظر رقم (٥٤٢٦) .

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٣٤) بلفظه، ومسلم (١١/ ٢٠٦٩) .

(٤) لا خلاق له: لا نصيب له.

(٥) أخرجه البخاري رقم (٥٨٣٥)، ومسلم (٦/ ٢٠٦٨) .

وقال ﷺ أيضًا: «حُرِّم لباس الذهب والحرير على ذكور أمتي، وأُحل لإناثهم»(١) .

وأما القول فإعلام الأعرابي بوصية نوح عليه السلام لولده على فراش الموت، وهذه وصية بلا ريب لا تُنسى وعظة لا تموت .

* * *

الفوائد من القصة:

١- استحباب الوصية عند الموت، ولو لم يكن على الميت دين أو حقوق، أو يتوقع حدوث بدع، أو معاصٍ من أهله وأرحامه، مما يجعل الوصية واجبة .

٢- فضل لا إله إلا الله، وأنها أثقل في الميزان من السموات السبع والأرضين السبع .

٣- فضل سبحان الله وبحمده .

٤- النهي عن الشرك .

٥- النهي عن الكبر إذ هو المقصود من القصة والشاهد من الحكاية .

* * *

(١) صحيح: أخرجه الترمذي رقم (١٧٢٠)، وقال: حسن صحيح، وأخرجه النسائي (٨/ ١٦١) رقم (٥١٦٣)، وأحمد (٤/ ٣٩٢-٣٩٤) .

خليل الرحمن إبرهيم وملك الموت

سيدنا إبراهيم عليه السلام: هو خليل الرحمن، وسيد الفتيان، وأبو الضيفان، وكان لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع ضيف.

وأول مَن سماه الله حنيفًا مسلمًا، وجُعل له لسان الحجة في التوحيد، والمجعول له لسان صدق في الآخرين.

وهو المبتلى بأنواع البلاء، والمشهود له بالوفاء، والمعروف بأبي الأنبياء، والمشهور عند الحنفاء، وأول من يلبس يوم كشف الغطاء، ومع هذا كان دائم الذكر للموت، ويشفق على نفسه ملك الموت.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام سأل ملك الموت، أن يريه كيف يقبض روح المؤمن؟ فقال له: اصرف وجهك عني، فصرف وجهه، ثم نظر إليه فرآه في صورة شاب حسن الصورة، حسن الثياب، طيب الرائحة، حسن البشر، فقال له: والله لو لم يلق المؤمن من السرور شيئًا سوى وجهك كفاه، ثم قال له: أرني كيف تقبض روح الكافر؟ فقال له: لا تطيق ذلك. قال: بل أرني، قال: اصرف وجهك عني، فصرف وجهه عنه، ثمَّ نظر إليه فإذا صورة إنسان أسود، رجلاه في الأرض، ورأسه في السماء كأقبح ما أنت راءٍ من الصور، تحت كل شعرة من جسده لهيب نار، فقال له: والله لو لم يلق الكافر سوى نظرة إلى شخصك لكفاه[1].

* * *

(١) تذكرة القرطبي (ص٦٩).

كيف يقبض ملك الموت روحًا بالمشرق، وروحًا بالمغرب في آنٍ واحد؟

ومرة ثانية يسأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت كيف يقبض نفسًا بالمشرق ونفسًا بالمغرب في وقت واحد، فعن أشعث بن أسلم قال: سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت... فقال: يا ملك الموت: ما تصنع إذا كانت نفس بالمشرق، ونفس بالمغرب، ووقع بأرض، والتقى الترجمان، كيف تصنع؟

قال: أدعو الأرواح بإذن الله فتكون بين إصبعي هاتين، قال: ... وَدُحِيت له الأرض فتُركت مثل الطست يتناول منها حيث شاء[١].

وروى ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان إبراهيم عليه السلام رجلاً غيورًا، وكان له بيت يتعبد فيه، فإذا خرج أغلقه، فرجع ذات يوم، فإذا هو برجل في جوف البيت، فقال: مَن أدخلك داري؟ فقال: أدخلنيها ربها، قال إبراهيم: أنا ربها. قال: أدخلنيها مَن هو أملك بها منك، قال: فمَن أنت من الملائكة؟ قال: أنا ملك الموت، قال: أتستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن؟ قال: نعم، ثم التفت إبراهيم، فإذا هو بشاب، فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه، وطيب رائحته، فقال: يا ملك الموت، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك لكان حسبه، ثم قبض روحه ﷺ»[٢].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا كما في التحرير المرسَّخ (ص٦٥).

(٢) أبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٧٥)، والتذكرة للقرطبي (٦٩).

ومرة أخرى التقى ملك الموت بأبي الأنبياء عليهما السلام:

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قال ملك الموت: يا رب إن عبدك إبراهيم فَزِع من الموت، فقال: قل له: الخليل إذا طال به العمر اشتاق إليه فبلغه، قال: نعم يا رب، قد اشتقت إلى لقائك، فأعطاه ريحانة فشمه فقُبِض فيها»(١) .

* * *

آخر ساعة من حياة الخليل

قال أهل التاريخ والسير: لما أراد الله تعالى قبض روح إبراهيم عليه السلام أرسل إليه ملك الموت في صورة شيخ هرم... وكان إبراهيم كثير الإطعام، يطعم الناس ويضيفهم، فبينما هو يُطعم الناس ويضيفهم إذا هو بشيخ كبير يمشي في الجادة، فبعث إليه بحمار فركبه، فلما أتاه قدَّم إليه الطعام، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة ويريد أن يدخلها فاهُ فيدخلها في عينه مرة، وفي أذنه مرة، ثمَّ إذا أدخلها في فيه وحصلت في جوفه، خرجت من دُبره، وكان إبراهيم قد سأل ربه ألا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأله الموت، فقال للشيخ حين رأى حاله: ما بالك يا شيخ تصنع هكذا؟ فقال: يا إبراهيم من الكبر. فقال: ابن كم أنت؟ قال: كيت وكيت، فحسب إبراهيم عمره فوجده يزيد على عمره بسنتين، فقال له إبراهيم: إنما بيني وبينك سنتان، فإذا بلغت عمرك صرت مثلك؟ قال: نعم، فقال إبراهيم: اللهم اقبضني قبل ذلك، فقام الشيخ فقبض نفسه. وكان الشيخ ملك الموت، وكان عمر إبراهيم مائتي سنة، وقيل: مائة وخمس وتسعون سنة، ودفن عند قبر سارة(٢) .

---

(١) التحرير المرسَّخ (ص٦٩)، وقال: أخرجه إسحاق بن بشر .

(٢) قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس للثعلبي (ص١٣٨) .

يعقوب عليه السلام وملك الموت

كان يعقوب عليه السلام أكرم أهل الأرض على ملك الموت -في زمانه- وإن ملك الموت استأذن ربه في أن يـأتي يعقوب، فأذن له، فجـاءه، فقال له يعقـوب: يا ملك الموت، أسـألك بالذي خلقك، هل قبـضت نفس يوسف فيمن قبضت من النفوس؟ فـقال: لا، ثمَّ قال له ملك الموت: يا يعقوب ألا أعلمك كلمـات؟ قال: بلى، قال: قل: يا ذا المعـروف الذي لا ينقطع أبداً، ولا يحصيه أحـد غيرك، قال: فدعا بهـا يعقوب في تلك الليلة، فلم يطلع الفجر حتى طرح القميص على وجهه فارتدَّ بصيراً. فقال لهم عند ذلك ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٦-٩٨] (١) .

وروي أنه رأى ملك الموت في المنام فـسأله: هل قبـضت روح يوسف؟ فقال: لا، وإنه والله حيٌّ يرزق.

وروي أنه رأى ملك الموت وقد زاره، فقال: السلام عليك أيها الكظيم، فاقشعر جلده، وارتعدت فـرائصه، وردَّ عليه السلام، ثم قال له: من أنت؟ ومن أدخلك هذا البـيت؟، وقد أغلقت على نفـسي بابي كيـلا يدخل عليَّ واحد ، و ﴿أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، فقـال له: يا نبي الله، أنا الذي أيتم الأولاد، وأرمل الأزواج، وأفرِّق بين الجمـاعات، قال: فأنت إذن ملك الموت، قـال : نعم، فقال له: يـا ملك الموت أنشدك الله إلا أخـبرتني هل تقبض روح من تأكـله السباع؟ قـال: نعم، قال: فأخـبرني عن الأرواح

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبي (ص١٩٤) .

أتقبضها مجموعة أو متفرقة روحًا روحًا؟ قال: أقبضها روحًا روحًا، قال: فهل مرت بك روح يوسف في الأرواح؟ قال: لا...[1].

* * *

ومرة أخرى يعقوب يسأل وملك الموت يجيب

عن الحكم أن يعقوب عليه السلام قال: ما من نفس منفوسة إلا وأنت تقبض روحها؟ قال: نعم، قال: فكيف وأنت عندي ها هنا، والأنفس في أطراف الأرض؟ قال: إنَّ الله سخر لي الدنيا فهي كالطست يوضع قدام أحدكم فيتناول أيًا من أطرافها شاء، كذلك الدنيا عندي[2].

* * *

وصية يعقوب على فراش الموت

ولما بلغ يعقوب عليه السلام مائة وسبعًا وأربعين سنة جاءهُ الموت، فجمع أولاده الاثني عشر وأحفاده ووصاهم وصيتهُ الأخيرة وصية الموت، فأوصاهم باتباع دين الإسلام والمحافظة على التوحيد، ونبذ الشرك، ولنترك المجال للقرآن يحدثنا بوصية يعقوب عليه السلام، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠- ١٣٣].

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبي (ص١٩٠).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا كما في الحبائك في أخبار الملائك (ص٣٩).

يوسف وملك الموت عليهما السلام

سيدنا يوسف عليه السلام هو الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن خليل الرحمن.

نبي الله يوسف الصديق، ابن نبي الله يعقوب، ابن نبي الله إسحاق، ابن أبي الأنبياء وخليل الرحمن عليهم السلام .

منحه شطر الجمال كله في سائر البشر، فأعطي من الحسن والجمال وصفاء اللون ونقاء البشرة ما لا يُوصف، حتى عرفته الدنيا كلها بجماله وحُسن خَلْقه.

وقد ورث الحُسن من جده إسحاق، فإسحاق بالعبرانية هو الضاحك، وورث إسحاق الجمال من أمه سارة، فكانت على نصف جمال حواء فيما قيل .

وبعد أن تمت لسيدنا يوسف عليه السلام النعمة ودان له القريب والبعيد، وسجد له إخوته وأبواه تعظيمًا وإكباراً - وكان هذا جائزاً في شريعتهم وقد حرمه الإسلام - دعا الله بهذا الدعاء ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] ، والدعاء بالوفاة على الإسلام، واللحاق بالصالحين مناسب لحال كمال النعمة فكأنما خشي من نقصانها، فاستغاث بالمنعم سبحانه ألا يحرمه من نعمة الإسلام التي هي أعظم النعم، وغاية الكرم، والتي بفواتها خسران الدنيا والآخرة .

هذا المعنى الذي أشرت إليه هو المناسب للحال وسياق الآيات، فإن لم يكن كما أشرت فربما كان دعاؤه بتمني الموت كان على فراش الوفاة، وهو

جائز عند الاحتضار بالاتفاق .

وإن لم يكن هذا ولا ذاك، فربما كان سؤال الوفاة جائزاً في شريعتهم. أما في الإسلام فلا يجوز تمني الموت، إلا عند خوف الوقوع في الفتن، كما ورد عن النبي ﷺ قال: «وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»(١) .

أما في حال السلامة من الفتن، فلا يجوز، قال نبينا محمد ﷺ: «لا يتمنَّ أحدكم الموت، لضر نزل به، إما مُحسنًا فيزداد، وإما مُسيئًا فلعله يستعتب، ولكن ليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»(٢) .

وبعد أن بلغ يوسف عليه السلام مائة وعشرين سنة جلس على فراش الموت .

وقد أوصى يوسف عليه السلام بني إسرائيل أن يحملوه معهم إذا خرجوا من مصر؛ ليدفنوه عند آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فلما مات حنَّطوه، ووضعوه في تابوت، فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام عندما أخرج فرعون وجنوده من مصر، فدفنه عند آبائه تنفيذاً لوصيته، وهذا ما نقرؤه في القصة الآتية:

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (١/٣٧٨)، والترمذي رقم (٣٢٣٥) عن ابن عباس وصححه.
(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٦٧١)، ومسلم كتاب الذكر، باب (١٠) عن أنس.

امرأة عجوز في الجنة

مريم بنت تاموسي

عجوز بني إسرائيل تشترط على نبي الله موسى ﷺ أن تكون معه في الجنة، وذلك مقابل أن تدلهم على قبر يوسف عليه السلام.

عن أبي موسى الأشعري قال: أتى النبيُّ ﷺ أعرابيًا فأكرمه فقال له: «ائتنا» فأتاه، فقال رسول الله ﷺ : «سل حاجتك»، فقال: ناقة نركبها، وأعنُزًا يحلبها أهلي، فقال رسول الله ﷺ : «عجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل؟» قالوا: يا رسول الله، وما عجوز بني إسرائيل؟ قال: «إن موسى لما سار ببني إسرائيل من مصر ضلوا الطريق، فقال: ما هذا؟ فقال علماؤهم: إن يوسف لما حضره الموت، أخذ علينا موثقًا من الله أن لا نَخْرج من مصر حتى ننقل عظامه[1] معنا. قال: فمن يعلم موضع قبره؟ قال: عجوز من بني إسرائيل، فبعث إليها فأتته، فقال: دُليني على قبر يوسف، قالت: حتى تعطيني حكمي. قال: ما حكمك؟ قالت: أكون معك في الجنة، فكَرِهَ أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه أن أعطها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع مستنقع ماء، فقالت: أنضبوا[2] هذا الماء، فأنضبوا، قالت: احتفروا واستخرجوا عظام يوسف، فلما أقلوها إلى الأرض إذا الطريق مثل ضوء النهار»[3] .

---

(١) هذا لا يناقض حديث رسول الله ﷺ الذي فيه: «إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»، وذلك لأن العظام قد تطلق على الجسم كله، ففي بعض الأحاديث: أن رسول الله ﷺ قال لامرأة: «مُري غلامك النجار يعمل لي أعوادًا- منبرًا - تحمل عظامي».

(٢) أنضبوا الماء: انقلوه وارفعوه .

(٣) حسن: رواه أبو يعلى في مسنده (٧٢٥٤)، وابن حبان في صحيحه (٢٤٣٥)، وصححه الحاكم، وقال الهيثمي: رواه الطبراني وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح. «من =

القصة التي معنا تذكر أن النبي ﷺ جاء أعرابيًا فأكرمه فطلب منه أن يأتيه ليحييه بتحية، فحضر الأعرابي وسأله ﷺ حاجته، فوجد منه حرصًا على متاع الدنيا الزائل، ولم يسأل ثواب الآخرة، فذكرهم بعجوز بني إسرائيل وحالها مع موسى عليه السلام عندما طلبوا منها معرفة موضع قبر يوسف عليه السلام، فاشترطت على كليم الله عليه السلام لقضاء حاجته أن تكون رفيقة له في الجنة، وكانت حريصة كل الحرص على ذلك حتى بلغت مرادها .

* * *

الفوائد من الوصية:

١- المسلمون عند شروطهم إلا شرطًا أحلَّ حرامًا أو حرَّم حلالاً .

٢- استحباب طلب الدعاء من الرجل الصالح، ومن باب أولى الأنبياء لبلوغ ثواب الآخرة وعدم الحرص على عطاء الدنيا .

٣- وجوب الوفاء بالعهود .

٤- استحباب الدفن بجوار الصالحين .

٥- جواز نقل الميت من قبر إلى قبر آخر، إن كان فيه مصلحة ضرورية للحي أو الميت، أو كان أمرًا من نبي .

٦- الحض على الدعاء بمرافقة الأنبياء عليهم السلام في الجنة .

٧- ثبوت معجزات الأنبياء عليهم السلام حيث إنهم لما نقلوا قبر يوسف عليه السلام وجدوا الطريق مثل ضوء النهار .

* * *

= فقه الدعاء» للشيخ / مصطفى العدوي، دار السنة (ص٣٩) .

موسى الكليم وملك الموت

سيدنا موسى بن عمران رسول الله وكليمه، وأحد الخمسة أولي العزم من الرسل، وأفضل الخلق بعد محمد وإبراهيم عليهما السلام، وسيد أنبياء بني إسرائيل وصاحب التوراة والصحف.

يحدثنا رب العزة عنه فيقول: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١] . ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٥-٣٦].

وبعد أن بلغ مائة وعشرين عامًا، جاءه ملك الموت عليه السلام في صورة إنسان بشري يهجم عليه قائلاً له: أجب ربك، فلما رآه بهذه الصورة لم يحسبه ملك الموت، وظنه عدوًا صائلاً قدم إليه ليؤذيه أو يقتله، فردَّ الاعتداء عن نفسه، ودفع الهاجم عليه، ففقأ عينه، ولنستمع إلى الصادق المصدوق يحدثنا عن هذا الموضوع الخطير:

* * *

قصة صك موسى عين ملك الموت

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «جاء مَلَكُ الموت إلى موسى عليه السلام فقال له: أجب ربك، قال: فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقأها، قال: فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يُريد الموت، وقد فقأ عيني، قال: فردّ الله عينه، وقال: ارجع إلى عبدي، فقلْ: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة، فضع يدك على متن ثَوْر، فما توارت يدك من شعرة، فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مه؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب، ربِّ أمتني من الأرض المقدسة رمية بحجر».

قال رسول الله ﷺ : «والله لو أنّي عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر». هذه رواية مسلم في الفضائل.

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أُرسل ملك الموت إلى موسى عليهما السلام، فلما جاءه صكّه، فرجع إلى ربه، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، فردّ الله عليه عينه، وقال: ارجع، فقل له: يضع يده على متن ثور، فله بكل ما غطّت به يده بكل شعرة سَنة، قال: أي ربِّ ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن فنسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رَمْية بحجر».

قال: قال رسول الله ﷺ : «فلو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر[1]»[2].

---

(١) البخاري في الجنائز، باب: من أحب الدفن في الأرض المقدسة أو نحوها (٣٣٩)، وأخرجه أيضًا (٣٤٠٧) في أحاديث الأنبياء، باب: وفاة موسى، ومسلم في الفضائل (١٥٧) (٢٣٧٢)، باب: من فضائل موسى عليه السلام، والنسائي (٤/١١٨، ١١٩) في الجنائز، وأحمد (٢/٢٦٩)، وابن حبان في صحيحه (٨/٣٨) (٦١٩٠).

(٢) ما دام الحديث صحيحًا فلا داعي لرد الحديث، وإنما يجب التسليم به، وتأويله بأحد =

المعاني:

أجب ربك: أي للموت، ومعناه: جئت لقبض روحك .

صكَّه: لطمه .

متن الثور: ظهره .

ثمَّ مَه؟ ثم ماذا يكون؟

رمية بحجر: قدر ما يبلغه الحجر .

الكثيب: الرمل المستطيل المُحْدَوْدب، وهنا اسم مكان بعينه .

* * *

الفوائد من القصة:

١- كانت الأنبياء تشاهد الملائكة - ومنهم ملك الموت - عيانًا .

٢- أن سنة الله في خلقه ماضية لا يستثنى منها الأنبياء .

٣- قبر موسى عليه السلام في الأرض المقدسة عند الكثيب الأحمر .

٤- ابتلاء الإنسان بالإيمان بالغيب .

٥- الكشف عن طبيعة الإنسان، خاصة في بعض المواقف وإن كان نبيًا .

٦- للملك قدرة على التصوير بغير صورته .

٧- في قوله: «يضع يده على متن ثور» دلالة على أن الدنيا بقي منها كثير، وإن كان قد ذهب أكثرها .

٨- فيه دلالة على الزيادة في العمر .

٩- ما ينبغي لمسلم أن يقيس ما حدث بين نبي وملَك الموت عليهما

= وجوه التأويل المقبولة كما سيأتي .

السلام على ما يحدث في عرف البشر .

١٠- تردد الملك لحكمة وهي لطفه تعالى بموسى ورفقه به .

١١- من دوافع ضرب موسى لملك الموت أنه أتاه متهجمًا عليه في صورة بشر وهو لا يعرفه، ثم إن موسى لما علم في المرة الثانية أنه ملك الموت استسلم للأمر، ويمكن أن يكون الله سبحانه أذن لموسى في هذه اللطمة، ويكون ذلك امتحانًا للملطوم .

- إن قال قائل: كيف جاز لموسى عليه السلام أن يُقدم على ضرب ملك الموت حتى فقأ عينه؟

فالجواب من وجوه ستة:

الأول: أنها كانت عينًا متخيلة لا حقيقة لها، وهذا القول باطل؛ لأنه يؤدي إلى أن ما يراه الأنبياء من صور الملائكة لا حقيقة لها، وهذا مذهب السالمية .

الثاني: أنها كانت عينًا معنوية، ففقأها بالحجة، وهذا مجاز لا حقيقة له .

الثالث: أنه لم يعرفه وظنه رجلاً دخل منزله بغير إذنه، يريد نفسه، فدافع عنها فلطمه، ففقأ عينه، وتجب المدافعة في مثل هذا بكل ممكن، وهذا وجه حسن؛ لأنه حقيقة في العين والصك .

قال الإمام أبو بكر بن خزيمة: إلا أن اعترض بما في الحديث نفسه وهو أن ملك الموت عليه السلام لما رجع إلى الله تعالى قال: يا رب أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، فلو لم يعرفه موسى لما صدر هذا القول من مَلَك الموت .

الرابع: أن موسى عليه السلام كان سريع الغضب، وسرعة غضبه كانت سببًا لصكه ملك الموت .

قال ابن العربي في «الأحكام»: وهذا فاسد؛ لأن الأنبياء معصومون أن يقع منهم ابتداءً مثل هذا في الرضا والغضب.

الخامس: ما قاله ابن مهدي يرحمه الله أنَّ عينه المستعارة ذهبت لأجل أنه جعل له أن يتصوز بما شاء، فكأن موسى عليه السلام لطمه، وهو متصور بصورة غيره، بدلالة أنه رأى بعد ذلك معه عينه.

السادس: وهو أصحها إن شاء الله، وذلك أن موسى عليه السلام كان عنده ما أخبر نبينا عليه السلام من أن الله تعالى لا يقبض روحه حتى يخيّره. خرّجه البخاري وغيره، فلما جاءه ملك الموت على غير الوجه الذي أُعْلِمَ بادر بشهامته وقوة نفسه إلى أدبه، فلطمه فَفُقِئَت عينه امتحانًا لملك الموت، إذْ لم يصرح له بالتخيير، ومما يدل على صحة هذا أنه لما رجع إليه ملك الموت فخيَّره بين الحياة والموت، اختار الموت واستسلم، والله بغيبه أعلم وأحكم.

وذكره ابن العربي في قبسه بمعناه والحمد لله[1].

وقال الدكتور الشيخ/ محمد بن محمد أبو شهبة: «... فالحديث مرفوع لا محالة، أما في رواية همام بن مُنبه فالأمر ظاهر، وأما رواية طاوس فلها حُكم الرفع؛ لأنه لا مجال للرأي فيه، ويبعد كونه من الإسرائيليات، وروده مرفوعًا من طريق صحيح، ورواه الإمام أحمد.

وليس في الحديث ما يُستشكل، وإنما يكون مُشكلاً لو أن موسى عليه السلام علم أنه ملك الموت، وأنه دافعهُ رغبة عن الموت، إذ مقام الأنبياء يتنزه عن ذلك، وفي الحق أن موسى عليه السلام ظنه عاديًا يريد أن يعتدي عليه،

---

(١) التذكرة للقرطبي، باب: ما جاء في اختيار البقعة للدفن (ص١٠٤، ١٠٥)، ط مكتبة حميدو، ش النبي دانيال، الإسكندرية.

فدافع موسى عن نفسه، فأدت المدافعة إلى فقء عينه، والدفاع عن النفس أمر مشروع في جميع الشرائع السماوية والقوانين الوضعية، وليس في الرواية ما يدل على أنه كان يعـرف أنه ملك الموت، وتشكُّل الملائكة بالصور الإنسـانية أمـر معـروف مُسلَّم، وجـاء به القرآن الـصادق الذي لا يتطرق إليـه الشك والارتيـاب، وليس بلازم أن يعـرف النـبي ﷺ أن المتَـشكِّل ملك[1] ، فقـد جاءت الملائكة إلى إبراهيم ولوط عليـهما الصلاة والسلام، كـما قصَّ القرآن الكريم في صورة آدميين ولم يعرفـاهم، ولولا ذلك لما قَدَّم لَهم إبراهيم عليه السلام اللحم المشوي، وقال: ألا تأكلون، ولما خـاف عليهم لوط من قومه، وليس أدل على أن موسى لم يكن يعـرف ملك الموت أولاً، أنه لما جاءه المرة الثانية وعرف أنه ملك الموت، وأن الله خيَّره بين طول الحياة أو قبض الروح، اختار قـبض الروح، والحديث صريح في هذا كل الصراحـة، وقد سبق إلى هذا الإمام أبو بكر بن خزيمـة وغيره من المتقدمين واختـاره المازري والقاضي عياض وغيرهما من علماء الأمة الذين جمعوا بين المعقول والمنقول .

ومما ينبـغي أن يُعْلم أن الملائكة تتـشكل، وأن الصـورة لا تتـحكم على هيئـتها الحقيـقية، ففـقء موسى عين ملك الموت عليه السلام لا يعـود عليه بنقص في خـلقـتـه ولا في هيـئـتـه، وبما ذكـرنـاه يزول عن الحـديث أي إشكال»[2] .

ومما يؤكد أنه لم يرد فقء عين ملك الموت ولم يعلـم أنه هو، أو أنه فقأ عينه ليُعمِّر أطـول أنه عرض عليه - بأمر ربه - أن يضع يده على جلد ثور، فله بكل ما غطت به يده بكل شعرة سنة، وعلى هذا فـإنه سيعمر مائة ألف

---

(١) فتح الباري (ج٦/ ص٣٤٢)، وصحيح مسلم بشرح النووي (ج١٥/ ص١٢٧، ١٢٨) .

(٢) دفاع عن السنة، للشيخ أبي شهبة (١٦٣، ١٦٤)، ط: مكتبة السنة .

سنة على الأقل، لكن كليم الله سأل ملك الموت، ثم ماذا بعد ألف ألف سنة حيـاة؟ قال : الموت، قال: فالآن، فلم يكن حـريصًا على الحيـاة، أو طالبًا زيادة عمـر، وإنما فقأ عـينه؛ لأنه ظن أنه رجل صائل يريد الاعتـداء عليه، فدافع عن نفسه.

* * *

داود عليه السلام وملك الموت

سيدنا داود عليه السلام من عظماء أنبياء بني إسرائيل.

- جعله الله قويًا في العبادة، شديد الاجتهاد فيها ، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا.

- شدد الله ملكه وقوّاه .

- وأعطاه الله الحكمة، وهي الإصابة في الأمور .

- ومنحه علم الحكم، والنظر في القضاء، والقول الفصل الذي لا يُعارض .

- سخر معه الجبال والطير يسبحن معه إذا سبح، ويجاوبنه بالتقديس والتسبيح.

- وألان له الحديد، فكان يقطعه كيف يشاء، فصار في يده مثل الشمع والعجين والطين المبلول .

- أول مخلوق وأول نبي عُلم عمره قبل أن يولد بآلاف السنين.

- وآتاه ربه كتاب الزبور .

- ولنستمع إلى رب العالمين وهو يثني عليه، قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ١٧-٢٠].

فماذا حدث له بعد أن بلغ مائة عام؟

* * *

قصة داود وملك الموت عليهما السلام

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أغلق الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع، قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مُغْلقة؟ والله لنفتضحن بداود، فجاء داود، فإذا الرجل قائم في وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا أمنع من الحُجَّاب، فقال داود: أنت والله إذن ملك الموت، مرحبًا بأمر الله، ثم مكث حتى قُبضت روحه، فلما غُسِّل وكُفِّن وفُرِغَ من شأنه طلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: أظلي على داود، فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض، فقال سليمان للطير: اقبضي جناحًا». قال: قال أبو هريرة: فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير، وقبض رسول الله ﷺ بيده، وغلبت عليه يومئذٍ المضرحية[1].

* * *

المعاني:

المضرحية: واحدها مضرحي وهو الصقر الطويل الجناح، أي وغلبت على التظليل عليه الصقور الطوال الأجنحة.

* * *

(١) أخرجه أحمد (ج٢/ ص٤١٩).

الشرح:

تُوضح لنا هذه القصة أن داود عليه السلام كان غيوراً، وأنه كان يَغار على أزواجه من دخول غيره عليهن، وهذا مستحب ما دام لم يخرج عن حدود العدل والإنصاف إلى الظلم وتتبع العورات والتماس العثرات، وعدم المسامحة في الهفوات، والغيرة بهذا الأسلوب حرص وحذر، وما العيب في أن تكون المرأة في بيتها كاللؤلؤة المصونة، والجوهرة المكنونة ترعى أولادها، وتؤدي حق زوجها، وتتفرغ لما يتلاءم مع طبيعتها وتكوينها طالما كان الزوج رحيمًا ودودًا مؤديًا لحقها المعنوي والمادي .

وكان داود عليه السلام إذا خرج من بيته أغلق الباب، فخرج ذات يوم، فجاء ملك الموت عليه السلام في صورة رجل ودخل بيت داود، فرأيته نسوة داود عليه السلام ففزعن؛ لأن هذا أمر لم يشاهدنه قبل ذلك. وبعد لحظات أقبل داود عليه السلام إلى بيته فرأى رجلاً لا يعلم أنه ملك الموت، فأخذته الغيرة الشديدة والحمية لعرضه وحريمه، فقال في شدة وإنكار: من أنت؟ ومن الذي أدخلك؟ فأجابه: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا يُمنع مني الحُجَّاب، فَعَلِمَ أنه ملك الموت، فسكن واطمأن على حريمه، وليكن بعد هذا ما يكون.

أصون عرضي بمالي لا أدنّسُهُ ... لا بارك اللهُ بعدَ العرضِ في المال

وعَلم نبي الله أن ملك الموت جاءه قابضًا، فسلَّم النفس لأمر الله تعالى، سعيدًا راضيًا، وقُبضت روح داود عليه السلام، فلما غُسِّل وكُفِّنَ وفُرِغَ من شأنه طلعت عليه الشمس، ولبسته بأشعتها، فأمر سليمان عليه السلام الطير أن تظل والده داود عليه السلام، فاستجابت له، وأظلته حتى أظلمت عليه الأرض، وغلب على التظليل عليه الصقور الكبار الطوال الأجنحة .

ونلاحظ في هذه القـصة أن نبي الله داود عليه السـلام هجم على ملك الموت، وأراد أن يقاتله لأنه حضر إليه فـي صورة بشر موجود في مكان يظن به الظنون .

ولولا أن ملك الموت أعلمه أنه المتولي قبض الأرواح لأوجعه ضربًا .

وهذا يُبرر موقف سـيدنا موسى عليه السلام عـندما أقدم على فقء عين ملك الموت، فهو لا يعلم أنه ملك الموت .

ويُصحح هذا وذاك ما ورد في القرآن الكريم من أمر إبراهيم عليه السلام مع ضيوفـه الذين لم يعلم أنهم ملائكة، لذا قدَّم إليهم الطعـام الشهي، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٤- ٢٦].

* * *

الفوائد من القصة:

١- استحباب الغيرة في الحق مع العدل .

٢- الموت يأتي بغتة .

٣- لا تأخير ولا تأجيل في الأجل .

٤- ملك الموت لا يحجبـه الحُجَّاب، ولا تغلق دونه الأبواب، ولا يمتنع منه الملوك.

٥- ثبوت معجزات الأنبياء عليهم السلام .

٦- سخَّر الله تعالى لسليمان الإنس والجن والطير والوحش والريح .

٧- إمكان ظهور الملائكة في صور الإنس .

* * *

سليمان عليه السلام وملك الموت

سيدنا سليمان عليه السلام نبي كريم، علمه الله منطق الطير، وآتاه من كل شيء، فسخَّر له الإنس والجن والطير والوحش والريح تجري بأمره مطيعة حيث أراد .

وهذا موقف يتعلق بالريح وملك الموت، وسليمان عليهما السلام:

عن خيثمة قال: دخل ملك الموت إلى سليمان، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فلما خرج قال الرجل: من هذا؟ قال: هذا ملك الموت، قال: رأيته ينظر إليَّ كأنه يريدني، قال: فما تريد؟ قال: أريد أن تحملني على الريح حتى تلقيني بالهند، فدعا الريح فحمله عليها، فألقته في الهند، ثمّ أتى ملك الموت سليمان، فقال: إنك كنت تديم النظر إلى رجل من جلسائي، قال: كنت أعجب منه، أمرت أن أقبضه بالهند وهو عندك[(١)] .

وفي رواية داود بن أبي هند قال: بلغني أن ملك الموت كان وُكِّل بسليمان عليه السلام، فقيل له: ادخل عليه كل يوم دخلة فسله عن حاجته، ثمَّ لا تبرح حتى تقضيها، فكان يدخل عليه في صورة رجل فيسأله كيف هو؟ ثم يقول: يا رسول الله! ألك حاجة؟ فإن قال: نعم، لم يبرح حتى يقضيها، وإن قال: لا؛ انصرف عنه إلى الغد، فدخل عليه يومًا وعنده شيخ فقام فسلم عليه يومًا وعنده شيخ، فقام فسلم عليه، ثم قال: ألك حاجة يا رسول الله؟ قال: لا، ولحظ الشيخ لحظة فارتعد الشيخ وانصرف ملك

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة.

الموت، فقام الشيخ، فقال لسليمان: أسألك بحق الله إلا ما أمرت الريح فتحملني فتلقيني بأقصى مَدَرة من أرض الهند، فهبطت وما أحسبه إلا ثمَّ، فوجدته عندك، فجعلت أتعجب وأنظر إليه ما لي هم غيره، فهبطت عليه اليوم مع طلوع الفجر فوجدته بأقصى مَدَرة من أرض الهند ينتفض فقبضت روحه[1].

وهذا المعنى وارد في الحديث التالي: قال رسول الله ﷺ: **«إذا كان أجل العبد بأرض أوثبته الحاجة إليها، حتى إذا بلغ أقصى أثره قبضه الله، فتقول الأرض يوم القيامة: ربِّ، هذا ما استودعتني»**[2].

أي والله:

مشيناها خُطًا كُتبت علينا ومن كُتبت عليه خُطًا مَشَاها

وأرزاق لنا متفرقات فمن لم تأته منا أتاها

ومن كُتبت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

* * *

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة، حديث رقم (٤٤٢)، وقد عقب المباركفوري على هذا الأثر: وهو من الأخبار الإسرائيلية، وإسناده إلى داود بن أبي هند صحيح؛ لأن رجاله ثقات، سوى عاصم، فإنه صدوق يخطئ.

(٢) حسن: أخرجه ابن ماجه رقم (٤٢٦٣)، قال في الزوائد: إسناده حسن.

ملك الموت يضع يده في صدر سليمان عليه السلام

اشتاق نبي الله سليمان عليه السلام أن يرى ملك الموت على صورته الحقيقية.

ذكر في بعض الأخبار أن سليمان عليه الصلاة والسلام دعا الله تعالى وسأله أن يريه ملك الموت، وأن يلبسه من القوة حتى يكلمه، فبينما هو قاعد ذات يوم على سريره، إذْ خرج رجل من جنب السرير ليس يراه أحد إلا سليمان، لم ير سليمان قط أتم خلقًا منه، فقال: يا عبد الله؛ ما أدخلك داري؟ قال: أدخلنيها ربها، أَدْخَلني من هو أملك لها منك ومني، فعلم عند ذلك أنه من الملائكة، فقال له: من أنت من ملائكة ربي؟ قال: أنا ملك الموت، قال: فسمعوا من كلامه جلبة، فَصُعِق سليمان من خوفه ومن كان معه في البيت، فقال ملك الموت: يا رب إن عبدك ونبيك سليمان سألك أن تأذن لي بالدخول عليه، وقد بلغ من خوفه ومن معه ما ترى، فألبسه من القوة ما يطيق النظر إليَّ، فأوحى الله تعالى إلى ملك الموت: أن ضع يدك في صدر سليمان، ففعل، فأفاق سليمان ومن معه بإذن الله تعالى، قال سليمان: يا ملك الموت، أترى خلق الله في السموات والأرض مثلك؟ فقال ملك الموت: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، إن رجلي الساعة على منكبي ملك، قد خرق قرناه السموات السبع، وارتفع فوق ذلك مسيرة ألف عام، وقد جاوز الثرى بخمسمائة فاتحًا فاه، رافعًا صوته بالتهليل والتقديس والتسبيح، باسطًا يديه، لو أذن الله له أن يقبضهما إلى صدره لضم السموات وما فيهن وما عليهن، ما خلا العرش، وأن فوقه ملكًا قائمًا قد أدخل رجليه تحت منكبي هذا الملك، وهذا من فوقه مسيرة ألف عام فاتحًا فاه، وأن شفتيه

ملتصقة بالعرش، والسفلى تحت الثرى، لو أذن الله تعالى له أن يضع شفته العليا على السفلى لأطبق ما بينهما في جوفه، وأن لله ملكًا عنقه مَثْنِي تحت العرش، ورجلاه قد جاوزتا رجلي هذين الملكين مسيرة ألف عام، يخرج الريح من أنفه، لو أذن الله له أن يتنفس لأدخل جميع ما خلق الله في السموات والأرض في نفسه سوى العرش، وأن هؤلاء الملائكة الذين وصفت لك يكون خلقهم عند خلق غيرهم من الملائكة الذين فوقهم كجناح ذبابة عند الفيل، وأن لله ملكًا باسطًا كفه اليمنى منذ خلقه الله تعالى، رافعًا صوته بالتهليل والتسبيح والتقديس والتحميد، لو أذن الله له أن يقبض كفه لقبض جميع الخلائق، ما خلا العرش، فقال سليمان عليه السلام: يا ملك الموت؛ اكفف عني، فلقد وصفت أمرًا أتخوف أن تطير روحي، ولا تثبت نفسي، ولا أطيق سماعه، فكف ملك الموت، فعندها قال سليمان عليه السلام: يا رب؛ متى ألتقي مع الأحبة، يا رب قد أحببت لقاءك والراحة من الدنيا[1].

فهذا كان سبب موت سليمان عليه السلام.

* * *

(١) العظمة لأبي الشيخ رقم (٤٣٤)، وانظر: بستان الواعظين لابن الجوزي (ص٢٠٤، ٢٠٥).

لقاء ثالث بين سليمان وملك الموت عليهما السلام

وفي إحدى المقابلات بين ملك الموت ونبي الله سليمان عليهما الصلاة والسلام، طلب نبي الله سليمان من ملك الموت أن يخبره بساعة موته.

فعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: قال سليمان لملك الموت: إذا أُمِرت بي فأعلمني، فأتاه فقال: يا سليمان؛ قد أُمِرت بك قد بقيت لك سويعة، فدعا الشياطين فبنوا عليه صَرْحًا من قوارير ليس له باب، فقام يصلي فاتكأ على عصاه، قال: فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متكئ على عصاه، ولم يصنع ذلك فرارًا من ملك الموت، قال: والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي.

قال: فبعث الله دابة الأرض - يعني إلى منسأته - (عصاته) فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضَعُفَت وثقل عليها، فخرَّ، فلما رأت الجن ذلك انفضُّوا وذهبوا، قال: فذلك قوله جل وعلا: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ : ١٤].

وكان في موته عليه السلام حكمة بالغة وآية باهرة تقطع يقينًا بعدم علم الجن بالغيب، فلا يعلم الغيب إلا علام الغيوب، ولا يعلم ما في غد إلا المُطَّلِع على خفايا القلوب.

* * *

متى أموت؟

ونبي الله سليمان عليه السلام يسأل ملك الموت عندما التقى به ذات مرة عن ميعاد وفـاته لعله يزداد له استعداداً، وليعد له عُـدَّته ، وليكثر من طاعة ربه، ولينعم بمناجاة ربه قبل لقائه .

روى أبو داود في كتـاب القدر عن خـيثمـة قال: قال سليـمان بن داود عليهما السلام لملك الموت: «إذا أردت أن تـقبض روحي فأعلمني، قال: ما أنا أعلم بذلك منك، إنما هي كُتب يُلقى إليَّ فيها تسمية من يموت»[1] .

* * *

(١) قصص الأنبياء لابن كثير (ص٥١٨) .

الرسول ﷺ وملك الموت

ملك الموت يستأذن على رسول الله ﷺ

ديدن ملك الموت عليه السلام والصلاة أن يستأذن على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل أن يقبض أرواحهم .

عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء ملك الموت إلى النبي ﷺ في مرضه الذي قبض فيه، فاستأذن ورأسه في حجر عليّ، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال علي: ارجع، فإنَّا مشاغيل عنك، فقال النبي ﷺ: «أتدري من هذا يا أبا الحسن؟ هذا ملك الموت، ادخل راشدًا»، فلما دخل قال: إن ربك يقرئك السلام، قال: «أين جبريل؟»، فقال: ليس هو قريب مني، الآن يأتي، فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل، فقال له جبريل وهو قائم بالباب: ما أخرجك يا ملك الموت؟، قال: التمسك محمد، فلما أن جلسا، قال جبريل: سلام عليك يا أبا القاسم، هذا وداع مني ومنك، فبلغني أنه لم يسلِّم ملك الموت بيت قبله، ولا يسلم على أحد بعده[1] .

بينما ورد في خبر باطل سندًا عن الحسين رضي الله عنه أن جبريل هبط على النبي ﷺ يوم موته، فقال: كيف تجدك؟ قال: «أجدني يا جبريل مغمومًا، وأجدني مكروبًا»، فاستأذن ملك الموت على الباب فقال جبريل: يا محمد! هذا ملك الموت يستأذن عليك، ما استأذن على آدمي قبلك، ولا يستأذن على آدمي بعدك، قال: «ائذن له»، فأذن له، فأقبل حتى وقف بين يديه، فقال: إن الله أرسلني إليك، وأمرني أن أطيعك، إن أمرتني أن أقبض

---

(١) قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٥-٣٦): رواه الطبراني، وفيه المختار بن نافع، وهو ضعيف .

نفسك قبضتها، وإن كرهت تركتها، قال: «وتفعل يا ملك الموت؟» قال: نعم، بذلك أُمرت، فقال له جبريل: إن الله قد اشتاق إلى لقائك، فقال رسول الله ﷺ: «امضِ لما أُمِرت به»(١).

ويدل على بطلان هذا الحديث أنه قد ورد في صحيح البخاري - كما سيأتي- أنه ما قبض نبي إلا وخيره ملك الموت بين الخلد في الدنيا ولقاء الله.

ومرة أخرى يلتقي ملك الموت عليه السلام بالنبي ﷺ ووقع اللقاء في أحد بيوت الأنصار رضي الله عنهم:

فعن الحارث بن الخزرج قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ونظر إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال: «**يا ملك الموت؛ ارفق بصاحبي، فإنه مؤمن**» فقال ملك الموت: طب نفسًا، وقرّ عينًا، فإني بكل مؤمن رفيق، واعلم يا محمد أني لأقبض روح ابن آدم، فإذا صرخ صارخ قمت في الدار ومعي روحه، فقلت: ما هذا الصارخ؟ والله ما ظلمناه، ولا سبقنا أجله، ولا استعجلنا قدره، وما لنا في قبضه من ذنب، فإن ترضوا بما صنع الله تؤجروا، وإن تسخطوا تأثموا، وتوزروا، وإن لنا عندكم عودة، ثم عودة، بعد عودة، فالحذر الحذر، وما من أهل بيت شعر ولا مَدَر، بر ولا فاجر، سهل ولا جبل إلا أنا أتصفحهم في كل يوم وليلة حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، والله لو أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو يأذن بقبضها.

قال جعفر بن محمد الصادق: «بلغني إنما يتصفحهم عند مواقيت

---

(١) رواه الطبراني وفيه عبد الله بن ميمون القداح، وهو ذاهب الحديث، كذا في المجمع (٩/ ٣٥).

الصلاة، فإذا حضر عند الموت، فإن كـان ممَّن يحافظ على الصلوات دنا منه الملك، وطرد عنه الشيطان، ويلقنه الملك: لا إله إلا الله، محمد رسول الله في ذلك الحال»[١] .

* * *

(١) رواه الطبراني في الكبير، وفيه عمر بن شمر الجعفي، والحارث بن الخزرج، ولم أجد من ترجمهما، وبقية رجاله رجال الصحيح، كذا قال الهيثمي في المجمع (٢/٣٢٦) .

وفاة الرسول ﷺ

ملك الموت والنبي ﷺ

ولنقرأ وفاة النبي ﷺ من الأحاديث الثابتة:

بداية المرض الأخير:

في اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١ هـ بدأ مرض النبي ﷺ.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: رجع رسول الله ﷺ من البقيع، فوجدني وأنا أجد صداعًا في رأسي، وأنا أقول: وارأساه، فقال: «**بل أنا، يا عائشة، وارأساه**»، ثم قال: «**ما ضرك لو مِت قبلي فقُمت عليك فغسَّلتك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك**»[١].

وقد صلى النبي ﷺ بالناس وهو مريض أحد عشر يومًا.

وأخذت عائشة رضي الله عنها تُمرِّض النبي ﷺ وترقيه، وتعوِّذه بالمعوِّذات[٢]، فعنها قالت: «إن النبي ﷺ كان إذا اشتكى نفث[٣] على نفسه بالمعوِّذات، ومسح عنه بيده، فلما اشتكى وجعه الذي تُوفِّي فيه طفقت أنفث على نفسه بالمعوِّذات التي كان ينفث، وأمسح بيد النبي ﷺ عنه»[٤].

* * *

(١) أخرجه البخاري مختصراً، وابن ماجه رقم (١٤٦٥). قال في الزوائد: إسناد رجاله ثقات، رواه البخاري من وجه آخر مختصراً.

(٢) سورة الإخلاص والمعوذتين: سورة الفلق وسورة الناس.

(٣) أي: يجمع الكفين، ثم ينفخ فيهما، ثم يقرأ السور الثلاث، ثم يمسح بيديه على جسده.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٣٩).

مات شهيداً

وفي مرضه الأخير أحس النبي ﷺ بألم الشاة التي سُمَّت له بخيبر التي استمر ألمها ثلاث سنوات حتى خرجت روحه متأثرة بسم هذه الشاة، ليلقى الله جل جلاله شهيداً.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: **«يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أَبْهَري من ذلك السُّم»**(١) ليجمع الله له بين النبوة والشهادة.

والأبهر: عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه .

* * *

قبل الوفاة بخمسة أيام

قالت عائشة رضي الله عنها: فخرج رسول الله ﷺ يمشي بين رجلين من أهله، أحدهما الفضل بن العباس، ورجل آخر -تعني علي بن أبي طالب- عاصبًا رأسه، تخط قدماه حتى دخل بيتي، ثمَّ غمر رسول الله ﷺ واشتد به وجعه، فقال: **«هريقوا عليَّ سبع قِرَب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم»**، قالت: فأقعدناه في مخضب لحفصة بنت عمر، ثم صببنا عليه الماء، حتى طفق يقول: **«حسبكم حسبكم»**(٢) .

وعن أيوب بن بشير أن رسول الله ﷺ خرج عاصبًا رأسه جلس على المنبر، ثمَّ كان أول ما تكلم به أنه صلَّى على أصحاب أُحُد، واستغفر لهم،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٢٩) باب مرض النبي ﷺ .

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٢٨)، وعبد الرزاق (٥/ ٩٧٥٤) .

فأكثر الصلاة عليهم، ثمَّ قال: «إن عبداً من عباد الله خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده»، قال: ففهمها أبو بكر وعرف أن نفسه يريد، فبكى وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فقال: «على رسلك يا أبا بكر، فإني لا أعلم أحداً كان أفضل الصحبة عندي يداً منه»[١] .

وعند ذلك أحس بخفة، فدخل المسجد متعطفًا ملحفة على منكبيه، قد عصب رأسه بعصابة دسمة، حتى جلس على المنبر، وكان آخر مجلس جلسه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس إليَّ»، فثابوا إليه، فقال فيما قال: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وفي رواية: «قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٢] ، وقال: «لا تتخذوا قبري وثنًا يُعبد»[٣] .

وعرض نفسه للقصاص قائلاً: «من كنت جلدت له ظهراً، فهذا ظهري فليستقد منه، ومَن كنت شتمت له عرضًا، فهذا عرضي فليستقد منه»[٤] .

ثمَّ نزل فصلى الظهر، ثمَّ رجع فجلس على المنبر، وعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها، فقال رجل: إنَّ لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: أعطه يا فضل، ثم أوصى بالأنصار قائلاً: «أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعَيبتي[٥]، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم».

وفي رواية: أنه قال: «إن الناس يكثرون، وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح

---

(١) أخرجه البخاري (١/٤٦٦)، والإمام أحمد (٣/١٨) .

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٤١، ٤٤٤٢، ٤٤٤٣) .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (ص٦٥) .

(٤) أخرجه البخاري (١/٥٣٦) .

(٥) أي: بطانتي وخاصتي .

في الطعام، فـمن ولي منكم أمراً يضر فـيه أحداً أو ينفعـه، فليقبل من مُـحسنهم ويتجاوز عن مُسيئهم»(١) . ولم يجلس على المنبر بعد هذا حتى توفاه الله.

* * *

قبل الوفاة بأربعة أيام

في يوم الخمـيس قبل الوفاة بأربعة أيام اشـتد بالنبي ﷺ وجعـه، فدعا الناس ليوصـيهم، يقول ابـن عباس رضي الله عنهـما: لما حُضـر رسـول الله ﷺ، وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ : «هلموا أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده» ، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتـاب الله، فاختلف أهل البيت واختصمـوا، فمنهم من يقول: قرِّبوا يكتب لكم كتـابًا لا تضلوا بعده، ومنهم من يقـول غير ذلك، فلما أكـثروا اللغو والاختـلاف، قال رسول الله ﷺ : «قوموا»، فكان ابن عباس يقول: «إن الرزية كل الرزية مـا حـال بين رسـول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم»(٢) .

لكنه ﷺ أوصاهم بثلاث: قال: «أخرجوا المشركين»، وفي رواية: «اليهود والنصارى من جزيرة العرب، وأجيزوا الـوفد بنحو ما كنت أجيزهم»، ونسي الراوي الثالثة، فـقيل هي قوله: «الصلاة الصـلاة، وما ملكت أيمانكم»، وقيل: تنفيذ جيش أسامة، وقيل: الاعتصام بكتاب الله وسنته ﷺ(٣) .

وكان النبي ﷺ يصلي بالناس من بداية مرضه إلى صلاة المغرب من يوم الخـميس، تـقول أم الفـضل: «سـمـعت رسول الله ﷺ يقـرأ في المغـرب

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار رقم (٣٧٩٩، ٣٨٠٠) .

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٣٢).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٤٣١) مع الفتح .

بالمرسلات عُرفًا، ثم ما صلى لنا بعدها حتى قبضه الله»[١] .

ولما جاء وقت العشاء ثقل المرض، ولم يستطع النبي ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: فقال النبي ﷺ: «أصلى الناس؟»، قلنا: لا يا رسول الله، وهم ينتظرونك، قال: «ضعوا لي ماءً في المخضب»، ففعلنا، فاغتسل، فذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: «أصلى الناس؟»، ووقع ثانيًا وثالثًا ما وقع في المرة الأولى من الاغتسال، ثم الإغماء حينما أراد أن ينوء، فأرسل إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فصلى أبو بكر تلك الأيام سبع عشرة صلاة في حياته ﷺ، وهي صلاة العشاء من يوم الخميس حتى صلاة الفجر من يوم الإثنين[٢] .

وراجعت السيدة عائشة النبي ﷺ ثلاث أو أربع مرات ليصرف الإمامة عن أبي بكر حتى لا يتشاءم الناس به[٣]، فأبى وقال: «إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس»[٤] .

* * *

قبل الوفاة بثلاثة أيام

قال جابر رضي الله عنه : سمعت النبي ﷺ قبل موته بثلاث وهو يقول: «ألا لا يموت أحد منكم إلا وهو يحسن الظن بالله»[٥] .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ١٩٣) رقم (٦٨١)، ومسلم كتاب الصلاة رقم (١٠٠).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٤٤٥) كتاب المغازي.

(٤) كما أخرجه البخاري (١/ ٩٩) .

(٥) أخرجه أبو داود الطيالسي رقم (١٧٧٩)، ومسند أبي يعلى (٤/ ١٩٣) رقم (٢٢٩٠) .

قبل الوفاة بيوم أو يومين

ويوم السبت أو الأحد وجد النبي ﷺ في نفسه خفة، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه بألا يتأخر. قال: «أجلساني إلى جنبه»، فأجلساه إلى يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يقتدي بصلاة رسول الله ﷺ ، ويسمع الناس التكبير(١) .

* * *

يوم الوفاة

وفي صباح يوم الإثنين، عن أنس رضي الله عنه قال: إن المسلمين بينما هم في صلاة الفجر من يوم الإثنين، وأبو بكر يصلي لهم، لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنظر أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس: وهمَّ المسلمون أن يُفتتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر(٢) .

ثم لم يأت وقت صلاة أخرى، ولما ارتفع الضحى دخلت فاطمة عليها السلام على سيد الخلق ﷺ فأسر لها سرًا حتى أضحكها وأبكاها.

قالت عائشة: اجتمعن نساء النبي ﷺ، فلم تغادر منهن امرأة فجاءت فاطمة كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ ، فقال: «مرحبًا بابنتي»، ثم أجلسها عن شماله، ثم إنه أسرَّ إليها حديثًا، فبكت فاطمة، ثمَّ إنه سارَّها،

(١) أخرجه البخاري (٢/ ١٩٥) رقم (٦٨٣، ٧١٢، ٧١٣) .

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٤٨) .

فضحكت أيضًا، فقلت لها: ما يبكيك؟ قالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ، فقلت: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن، فقلت لها حين بكت: أخصكِ رسول الله ﷺ بحديث دوننا ثم تبكين؟ وسألتها عما قال؟ فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ، حتى إذا قبض سألتها عما قال، فقالت: إنه كان يُحدِّثني: «أن جبرائيل كان يعارضه بالقرآن في كل عام مرة، وأنه عارضه به العام مرتين، ولا أراني إلا قد حضر أجلي، وأنكِ أول أهلي لحوقًا بي، ونِعمَ السلف أنا لكِ»، فبكيت، ثم إنه سارني، فقال: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو نساء هذه الأمة»، فضحكت[١].

وعن أنس رضي الله عنه قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أباه، فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه في جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دُفن، قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس: أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: توفي النبي ﷺ في بيتي وفي يومي، وبين سحري ونحري، وكانت إحدانا تُعوِّذه بدعاءٍ إذا مرض فذهبت أُعوِّذه فرفع رأسه إلى السماء وقال: «في الرفيق الأعلى في الرفيق الأعلى». ومر عبد الرحمن بن أبي بكر، وفي يده جريدة رطبة فنظر إليه النبي ﷺ فظننت أن له بها حاجة فأخذتها فمضغت رأسها ونفضتها فدفعتها إليه فاستن بها كأحسن ما كان مُستنًّا، ثم ناولنيها فسقطت يده- أو سقطت من يده- فجمع الله بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة[٣].

---

(١) أخرجه البخاري، وابن ماجه رقم (١٦٢٢)، واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٦٢).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٥١) باب مرض النبي ﷺ.

ادخل يا ملك الموت

ودخل ملك الموت على رسول الله ﷺ ليخيِّره بين الخلود في الدنيا وبين لقاء الله الجنة، فاشتاق النبي ﷺ، واختار الرفيق الأعلى.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: إنه لم يُقبض نبي قط، حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يُحيا - أو يُخيَّر - فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة، غُشِيَ عليه، فلما أفاق شخص بصرُه نحو سقف البيت، ثم قال: «اللهم في الرفيق الأعلى»، فقلت: إذًا لا يختارنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدِّثنا وهو صحيح[1].

ويوم الثلاثاء: بدءوا تغسيل النبي ﷺ وكان الذين تولوا غسله: العباس وعليًّا والفضل وقُثم ابني العباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ، وأسامة بن زيد، وأوس بن خولى، رضي الله عنهم.

وأراد هؤلاء أن يجردوا النبي ﷺ من الثياب ليغسلوه فوقعت هذه المعجزة:

قالت عائشة رضي الله عنها: لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري، أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نُجَرِّد موتانا؟ أو نغسله وعليه ثيابه؟ قالت: فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم، حتى ما منهم رجل إلا ذقنه في صدره، ثمَّ كلمهم مُكلِّم من ناحية البيت لا يدرون مَن هو: أن غسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه، قالت: فقاموا إلى رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٣٧).

فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فوق القميص، ويُدلّكونه والقميص دون أيديهم[١]. فكان أول من غُسِّل وعليه ثيابه.

وحدث هذا الحدث أيضًا عند الغسل، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لما غَسَّل النبي ﷺ ذهب يلتمس منه ما يلتمس من الميت، فلم يجده، فقال: بأبي الطيب[٢]، طبت حيًا وطبت ميتًا»[٣].

وقد غسلوه ثلاث مرات بماء وسدر، وغُسِّل من بئر يقال لها: الغرس لسعد بن خيثمة بقباء، وكان يشرب منها[٤].

* * *

كفن النبي صلى الله عليه وسلم

وكُفِّن النبي ﷺ في ثلاثة أثواب يمانية، بيض سُحُولية[٥]، من كُرْسُف[٦]، ليس فيها قميص ولا عمامة[٧].

* * *

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٦٧)، وابن ماجه كتاب الجنائز رقم (١٤٦٦)، وابن إسحاق (٤/ ٢٢١، ٢٢٢) بسند صحيح متصل.

(٢) أي: أنه مُفدًى بأبي.

(٣) أخرجه ابن ماجه، كتاب الجنائز رقم (١٤٦٧)، قال في الزوائد: إسناده صحيح؛ ورجاله ثقات.

(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ٢٧٧-٢٨١).

(٥) نسبة إلى قرية باليمن.

(٦) كُرسف: قطن.

(٧) أخرجه البخاري رقم (١٢٦٤).

حُسن الخاتمة

هي أن يختم للعبد بعمل صالح قبل الموت مباشرة، فيموت على طاعة، كأن يموت وهو يصلي، أو يموت وهو يحج بيت الله الحرام، أو يموت وهو صائم، أو يموت في القتال ضد أعداء المتعال . ويا لها من سعادة ما بعدها سعادة، وأيم الله إنها للشرف السرمدي .

يا الله على هذه العظمة .

انظر: إن الحبيب إذا لقي محبوبته على هيئة حسناء وعمل ترضاه محبوبته ازداد الحب بينهما . فما بالك لو لقي العبد رب السموات والأرض على طاعة، فلا بد لمثل هذا أن ينال الشفاعة، وأن يجلس في الجنة كل ساعة.

ولا يفوتنا أن نعيد عليك أن صاحب حسن الخاتمة تتلقاه الملائكة بالسلام والترحاب والرضا والتحاب ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

إنّ العبد المؤمن إذا خرج من الدنيا تلقاه الملك قائلاً له: ربك يقرئك السلام.

إي والله: حرام على كل نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم أين مصيرها؟

* * *

علامات حُسن الخاتمة

في حديث رسول الله ﷺ علامات بينات يُستدَل بها على حسن الخاتمة، فأيما امرئ مات بإحداها كانت بشارة، نسأل الله حسن الخاتمة.

- الأولى: نطقه بالشهادة عند الموت: لقوله ﷺ: «من كان آخِر كلامه: لا إله إلا الله؛ دخل الجنة»[١].

- الثانية: الموت برشح الجبين: لحديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه أنه كان بخراسان فعاد أخًا له وهو مريض فوجدهُ بالموت، وإذا هو بعرق جبينهُ، فقال: الله أكبر !!، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «موت المؤمن بعرق الجبين»[٢].

- الثالثة: الموت ليلة الجمعة أو نهارها: لقوله ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة، إلا وقاه الله فتنة القبر»[٣].

- الرابعة: الاستشهاد في ساحة القتال: لقوله ﷺ: « للشهيد عند الله ست خصال: يُغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن الفزع الأكبر، ويُحلى حلية الإيمان، ويُزوج من الحور العين ؛ ويُشَفَّع

---

(١) رواه أبو داود (٣١١٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٥١، ٥٠٠)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٥٠، ٣٥٧، ٣٦٠)، والحاكم (١/ ٣٦١)، وصححه على شرط مسلم، والطيالسي (٨٠٨)، والنسائي (٤/ ٦)، والترمذي (٩٨٢) وحسنه، وابن ماجه (١٤٥٢).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٦٩، ١٧٦، ٢٢٠)، والترمذي (١٠٧٤)، وقال الألباني في أحكام الجنائز (ص٣٥): الحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح، وكذا في تخريج المشكاة (١٣٦٧)، وحسنه محقق جامع الأصول (٩/ ٢٧٢).

في سبعين إنسانًا من أقاربه»[١] .

وتُرجى هذه الشهادة لمن سألها مخلصًا من قلبه ولو لم يتيسر له الاستشهاد في المعركة ؛ لقوله ﷺ: «مَن سأل الله الشهادة بصدق بلَّغَهُ الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه» [٢] .

- الخامسة: الموت غازيًا في سبيل الله: لقوله ﷺ: «من قَفل - أي خرج - في سبيل الله فمات، أو قتل فهو شهيد، أو وقصه فرسه أو بعيره [٣]، أو لدغته هامّة، أو مات على فراشه بأي حتف شاء الله فإنه شهيد ، وإن له الجنة»[٤] .

- السادسة: الموت بالطاعون: لقوله ﷺ: «الطاعون شهادة لكل مسلم»[٥] وفيه أحاديث صحيحة كثيرة عنه ﷺ غير هذا.

- السابعة: الموت بداء البطن: وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «من مات في البطن[٦] فهو شهيد»[٧] .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٣١)، وابن ماجه (٢٨٩٩)، والترمذي (١٦٣٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب عن المقدام بن معدي كرب، وأخرجه أحمد (٤/ ٢٠٠) عن قيس الجذامي وإسناده صحيح .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (في الإمارة برقم ١٥٧)، والبيهقي (٩/ ١٦٩) عن أبي هريرة، وله شواهد في مستدرك الحاكم (٢/ ٧٧) .

(٣) أي: كسرت عنقه .

(٤) أخرجه أبو داود (٢٤٩٩)، والحاكم (٢/ ٧٨)، والبيهقي (٩/ ١٦) من حديث أبي مالك الأشعري .

(٥) رواه البخاري في الطب، باب: ما يذكر في الطاعون برقم (٥٧٣٢)، ومسلم في الإمارة (١١٦)، والطيالسي (٢١١٣)، وأحمد في المسند (٣/ ١٥٠، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٥٨-٢٦٥) عن أنس بن مالك .

(٦) أي: بداء البطن، وهو الاستسقاء وانتفاخ البطن، وقيل: هو الإسهال، وقيل: الذي يشتكي بطنه .

(٧) رواه مسلم في الإمارة برقم (١٦٥)، وأحمد (٢/ ٥٢٢) .

- الثامنة والتاسعة: الموت بالغرق والهدم: لقوله ﷺ: «الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغرق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله»(١) .

- العاشرة، والحادية عشر، والثانية عشر: موت المرأة في نفاسها بسبب ولدها، والموت بالحرق، وذات الجنب(٢) : لحديث جابر بن عتيك عن النبى ﷺ: «الشهداء سبعة هم: القتل في سبيل الله شهيد، والمبطون شهيد، والحرق شهيد، والذى يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع (٣) شهيدة»(٤) .

- الثالثة عشر: الموت بداء السل: لحديث راشد بن حبيش، عن النبى ﷺ وفيه: «والسُّل» يعنى أنه شهادة (٥) .

- الرابعة عشر، والخامسة عشر، والسادسة عشر: الموت في سبيل الدفاع عن المال المراد غَصبه، أو الدفاع عن الدين والنفس: لحديث سعيد بن زيد عن النبى ﷺ قال: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد»(٦) .

- السابعة عشر: الموت مرابطًا في سبيل الله: وصحّ من حديث سلمان عن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى

---

(١) رواه البخاري في الجهاد، باب: الشهادة سبع سوى القتل برقم (٢٨٢٩)، ومسلم في الإمارة برقم (١٦٤)، والترمذي (١٠٦٣)، ومالك في الموطأ، كتاب صلاة الجماعة برقم (٦)، وأحمد (٢/ ٣٢٥) .

(٢) ورم حار يعرض في الغشاء المستبطن للأضلاع .

(٣) تموت وفي بطنها ولد .

(٤) رواه مالك في الموطأ، كتاب الجنائز برقم (٣٦)، وأحمد (٥/ ٤٤٦)، وابن ماجه (٢٨٠٣)، والنسائي (٤/ ١٤)، والحاكم (١/ ٣٥٢) .

(٥) المسند (٣/ ٤٨٩)، وإسناده حسن .

(٦) إسناده صحيح: أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٩٠)، والنسائي (٧/ ١١٦)، وأبو داود (٤٧٧٢)، والترمذي (١٤٢١) .

عليه عمله الذى كان يعمله، وأُجري عليه رزقه، وأَمِن الفتان»(١) .

- الثامنة عشر: الموت على عمل صالح: لقوله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله ابتغـاء وجه الله ختم له بها ودخل الجنة، ومن صـام يومًا ابتغاء وجـه الله ختم له به دخل الجنة، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة»(٢) .

وبالجملة فكل من مات على عمل صالح نال حسن الخاتمة.

* * *

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٦٣)، والنسائي (٦/ ٣٩)، والحاكم (٢/ ٨٠)، وأحمد (٥/ ٤٤٠، ٤٤١)، وابن حبان (٤٦٠٤، ٤٦٠٦)، والبيهقي (٩/ ٣٨)، والترمذي (١٦٦٥)، والحلية (٥/ ١٩٠)، وانظر: إرواء الغليل (١٢٠٠) .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٩١) عن حذيفة، وإسناده صحيح، وراجع إن شئت أحكام الجنائز للألباني .

أمثلة لحسن الخاتمة

أولاً: أصحاب الرسول ﷺ:

خاتمة حنظلة بن عامر

تأمل يرحمك الله.

هذا حنظلة بن أبي عامر، أبوه أبو عامر الذي سمي بالفاسق. كان حنظلة حديث عهد بالعُرس، فلمّا سمع هواتف الحرب، وهو على امرأته، انخلع من أحضانها، وقام من فوره إلى الجهاد، فلمّا التقى بجيش المشركين في ساحة القتال، أخذ يشق الصفوف، حتى خلص إلى قائد المشركين أبي سفيان صخر بن حرب، وكاد يقضي عليه لولا أن أتاح الله له الشهادة، فقد شَدّ على أبي سفيان، فلمّا استعلاه وتمكّن منه، رآه شداد بن الأسود فضربه حتى قتله[1] ونزلت الملائكة فغسّلته.

* * *

(١) ذكره ابن هشام (٢/ ٧٥) بلا سند، وأخرجه الحاكم (٣/ ٢٠٤، ٢٠٥)، والبيهقي (٤/ ١٥)، والسراج من طريق ابن إسحاق، حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جده، وسنده جيد، وله شاهد عند الطبراني بسند حسن كما في المجمع (٣/ ٢٣)، وفي الباب شاهد مرسل عن الحسن عند ابن سعد (٣/ ١/ ٩)، والسند إليه قوي.

خاتمة عمرو بن ثابت

كـان عمـرو بن ثابت المعـروف بالأصيـرم من بني عـبد الأشـهل يأبى الإسلام، فلمّا كان يوم أحد، قذف الله الإسلام في قلبه للحُسنى التي سبقت له منه، فأسلم وأخذ سيفـه، ولَحِق بالنبي ﷺ، فقاتل فأثبت بالجراح، ولم يعلم أحد بأمـره، فلمّا انجلت الحرب، طـاف بنو عبد الأشـهل في القتلى يلتمـسون قتـلاهم، فوجدوا الأصيـرم وبه رمق يسير، فـقالوا: والله إنّ هذا الأصيرم، ما جاء به لقد تركناه وإنه لَمُنكِرٌ لهذا الأمر، ثمّ سألوه ما الذي جاء بك؟ أَحَـدَبٌ على قـومك، أم رغبـةٌ في الإسـلام؟ فـقال: بل رغبـة في الإسلام، آمنت بالله ورسوله، ثمّ قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابني ما ترون، ومات من وقته، فـذكروه لرسول الله ﷺ فقال: «هو مِن أهل الجنة». قال أبو هريرة: «ولَم يُصلِّ لله صلاةً قط»[1].

* * *

(١) أخرجه ابن هشـام (٢/ ٩٠)، وأحمد (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩) من طريق ابن إسحـاق، حدثني الحصين بن عبد الرحـمن بن عمرو بن سعد بن مُعاذ، عن أبي سفـيان مولى أبي أحمد، عن أبي هريرة، وسنده قوي. الزاد (٣/ ٢٠٠ ، ٢٠١).

خاتمة الذي وطأ بعرجته في الجنة

كان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا، فلمّا توجّه إلى أُحد، أراد أن يتوجه معه، فقال له بنوه: إنّ الله قد جعل لك رخصة، فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ، - فقال: يا رسول الله؛ إنّ بَنِيَّ هؤلاء يمنعوني أن أخرج معك، ووالله إني لأرجو أن أستشهد، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال له رسول الله ﷺ: «أمّا أنت، فقد وضع الله عنك الجهاد». وقال لبَنيه: «ما عليكم أن تَدَعُوه، لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة»، فخرج مع رسول الله ﷺ، فقتل يوم أُحد شهيداً (١).

* * *

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة (٢/ ٩٠، ٩١) عن ابن إسحاق قال: حدثني أبي إسحاق ابن يسار، عن أشياخ من بني سلمة، وهذا سند رجاله ثقات، فإن كان الأشياخ من الصحابة فهو مُسْند، وإلا فهو مُرسل، وأخرج أحمد (٥/ ٢٩٩) من حديث أبي قتادة أنه حضر ذلك فقال: أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أُقتل أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ وكانت رجله عرجاء فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقتلوا يوم أُحد هو وابن أخيه ومولى لهم، ومرّ رسول الله ﷺ فقال: «كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة» وسنده حسن كما قال الحافظ في الفتح.

خاتمة أنس بن النضر عم أنس بن مالك

لم يحضر أنس بن النضر غزوة بدر الكبرى فقال:

لئن أشهدني الله قتالاً آخر للمشركين ليرين الله ماذا أصنع؟ فلمّا كانت غزوة أحد كان صاحبه سعد بن معاذ، فقال له: يا سعد: واهًا لريح الجنة إنّي لأجدها من دون أُحد، فلمّا التحم القتال وانتصر الكفار الأنذال قال: اللهم إنّي أعتذر إليك ممّا صنع هؤلاء- يعني المسلمين. وأبرأ إليك ممّا صنع هؤلاء- يعني المشركين- فقاتل القوم حتى قتل فظلوا يبحثون عنه في الشهداء فلم يعرفوه حتى عرفته أُخته ببنانه[1]، وبه بِضع وثمانون، ما بين طعنة بِرُمح وضربة سيف ، ورَمية بسهم.

قال أنس: فكنا نظن (نتيقن) أن الله أنزل فيه وفي أمثاله: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[2] [الأحزاب: ٢٣].

* * *

(١) أصابعه.

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٢٧٤) في المغازي: باب غزوة أُحُد، ومسلم (١٩٠٣) في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، والترمذي (٣١٩٨) و (٣١٩٩)، وأحمد (٣/ ٢٠١، ٢٥٣) عن أنس.

وإليك هذه الخاتمة النيّرة

خاتمة شهداء بئر معونة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط عَيْنًا سرية، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهَدَأة، بين عُسفان ومكة ذُكروا لحي من هُذيل يُقال لهم: بنو لِحْيَان، فَنَفروا لهم بقريب من مائة رجلٍ رامٍ فاقتصوا آثارهم، فلمّا أحس بهم عاصم وأصحابه، لجئوا إلى موضع فأحاط بهم القوم، فقالوا: انزلوا، فأعطوا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً، فقال عاصم ابن ثابت:

أيُّها القوم أمّا أنا، فلا أنزل على ذمة كافر: اللهم أخبر عنا نبيك ﷺ، فرَمَوْهم بالنَّبل فقتلوا عاصمًا، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق، منهم خُبيبٌ، وزيد بن الدثّنة ورجل آخر، فلمّا استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيِّهم، فربطوهم بها، قال الرجل الثالث: هذا أول الغدر والله إنّ لي بهؤلاء أسوة، يُريد القتلى، فجرُّوه وعالجوه، فأبى أن يصحبهم فقتلوه وانطلقوا بُخبيب، وزيد بن الدثّنةِ، حتى باعوهما بمكة بعد وَقعة بدر، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف خُبَيْبًا، وكان خُبيْب هو قاتل الحارث يوم بدر.

فلَبث خُبيب عندهم أسيراً حتى أجمعوا على قتله، فاستعار من بعض بنات الحارثُ مُوسى يستحد بها فأعارته فَدَرج بُنَيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاه، فوجدته مُجلسَه على فَخذه والمُوسى بيده، ففزعت فزعة عرفها خُبيب فقال: أتخشين أن أقتله ما كُنت لأفعل ذلَك! قالت: والله ما رأيت أسيراً خيراً من

خبيب، فوالله لقد وجدته يومًا يأكل قِطفًا من عنب في يده وإنه لمُوثق بالحديد وما بمكة من ثمرة، وكانت تقول. إنه لرزق رزقه الله خُبيبًا، فلمّا خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحال، قال لهم خُبيب: دعوني أصلي ركعتين فتركوه، فركع ركعتين، فقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جَزَعٌ لزدت: اللهم أحصهم عددًا واقتلهم بَدَدًا، ولا تُبقِ منهم أحدًا، وقال:

فلست أبالي حين أُقتل مُسلمًا ... على أي جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الله وإن يشأ ... يُبارك على أوصال شلو مُمَزَّعِ

رواه البخاري[1].

وخُبَيب رضي الله عنه يقال له: بليع الأرض؛ لأن الأرض بلعته بعدما مات، ومن أشعاره في آخر أنفاسه.

لقد جمع الأحزاب حولي، وألَّبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مَجْمعِ
وكلهم مبدي العداوة جاهدٌ ... عليَّ لأني في وثاق بِمَضيعِ
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرِّبتِ من جذعٍ طويل مُمَتَّعِ
إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي ... وما أُرصِد الأحزابُ لي عند مصرعي
فذا العرش صبرني على ما يُراد بي ... فقد بضَّعوا لحمي وقد ياس[2] مطمعي
وقد خيروني الكفر والموت دونه ... فقد ذرفت عيناي من غير مجزعي
وما بي حذار الموت إني لَمَيِّتٌ ... وإنَّ إلى ربي إيابي ومرجعي[3]

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع فتح الباري (٧/ ٣٧٨)، قوله: الهَدْأة: مَوْضع. والظُلَّة والدُّبر: النحل، وقوله: «اقتلهم بددًا» بكسر الباء وفتحها، فمن كسر قال: هو جمع بِدة بكسر الباء، وهو النصيب، ومعناه: اقتلهم حصصًا منقسمة لكل واحد منهم نصيب، ومن فتح: قال معناه متفرقين في القتل وَحِدًا بعد واحد من التبديد.

(٢) ياس لغة في يئس.

(٣) زاد المعاد لابن القيم (٣/ ٢٤٥) تحقيق الأرناؤطيين.

خاتمة جعفر الطَّيار

في غزوة مؤتة في جمادى الأولى سنة ٨هـ، الموافق أغسطس أو سبتمبر سنة ٦٢٩م.

أخذ الراية زيد بن حارثة، فجعل يقاتل قتال الأبطال، حتى قُتِل صريعًا، ثمّ أخذها جعفر بن أبي طالب فأخذ يُقاتل قتالاً منقطع النظير، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها، ثمّ قاتل حتى قُطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتى قُطعت شماله، فاحتضنها بعضديه، فلم يزل رافعًا إيّاها حتى قُتل، يقال: إنّ روميًا ضربه ضربةً قطعته نصفين، وأثابه الله بجناحيه جناحين في الجنة، يطير بهما حيث يشاء، ولذلك سُمّي بجعفر الطيار.

روى البخاري عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دبره أي ظهره[1].

وفي رواية أخرى «قال ابن عمر: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورمية»[2]، وفي رواية العمري عن نافع زيادة «فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده»[3].

---

(١) صحيح البخاري، باب غزوة مؤتة من أرض الشام (٢/ ٦١١).

(٢) نفس المصدر (٢/ ٦١١)، الرحيق المختوم (٤٥٦، ٤٥٧).

(٣) فتح الباري (٧/ ٥١٢)، وظاهر الحديثين التخالف في العدد، ووجه الجمع بينهما أن الزيادة باعتبار ما وجد فيه من رمي السهام.

ولما قُتل جعفر بن أبي طالب أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وتقدم يقاتل، وكان يقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... كارهة أو لتطاوعنه

إن أجلب الناس وشدُّوا الرنه ... ما لي أراكِ تكرهين الجنه

وظل يُقاتل حتى قُتِل[1].

* * *

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم. بدون الأشعار. الرومي: هو النصراني (المسيحي).

خاتمة حرام بن ملحان

في صفر من السنة الرابعة، قدم أبو براء عامر بن مالك -المدعو ملاعب الأسنَّة - على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه إلى الإسلام، فلم يُسْلِم، ولم يُبعد، فقال: يا رسول الله؛ لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك، فقال: إني أخاف عليهم أهل نجد فقال أبو براء: أنا جار لهم فبعث معهم سبعين - كما في الصحيح - وأمر عليهم المنذر بن عمرو- أحد بني ساعدة المُلقب بـ «المُعْنِق» ليموت- وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وسادتهم وقرائهم، فساروا حتى نزلوا بئر معونة، وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سُليم، فنزلوا هناك، ثُمّ بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سلَيم الأنصارية أُم أنس بن مالك - بعثوه بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر ابن الطفيل، فلم ينظر في كتاب رسول الله ﷺ، وأمر رجلاً من أتباعه فطعن حَرَام بن مَلحان بالحربة من خلفه، فلمّا أنفذها فيه، ورأى حَرَام رضي الله عنه الدَّم قال: «فُزْتُ وربِّ الكعبة» (١) .

ثمّ استنفر عدو الله بني عامر لقتيلهم فلم يجيبوه للعهد، وما أجابه إلا رِعل وَذكْوَان وعُصَيَّة، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ حتى قتلوا عن آخرهم، ولم يبق إلا كعب بن زيد بن النجار وقع جريحًا بين الشهداء. وقد قنت رسول الله ﷺ شهراً على رعل وذكوان وعصية يدعو عليهم(٢) .

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٢٩٧، ٢٩٩) في المغازي: باب غزوة الرجيع، وفي الجهاد باب من ينكب في سبيل الله، وباب فضل قول الله تعالى: ﴿ولا تَحْسَبَن الذين قُتلوا في سَبيل الله أمواتًا﴾، وباب العودة والمدد - ومسلم (٦٧٧) (ص١٥١١) في الإمارة باب ثبوت الجنة للشهيد، وأحمد (٣/ ١٣٧، ٢١٠، ٢٧٠، ٢٨٩) .

(٢) أخرجاه .

خاتمة سعد بن الربيع الأنصاري

قال زيد بن ثابت: بعثني رسول الله ﷺ يوم أُحد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: «إن رأيته فأقرئه مني السلام. وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟» قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بآخر رمق، وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم فقلت: يا سعد، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك: «أخبرني كيف تجدك؟» فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته[1].

وسعد بن الربيع هو الذي جعله رسول الله ﷺ أخًا لعبد الرحمن بن عوف فخيَّر سعد عبد الرحمن أن يختار من ماله ما يشاء، وكان له زوجتان فقال: اختر إحداهما، أطلقها، ثمّ تعتد، فتتزوجها - رحمه الله- . رواه البخاري وغيره.

* * *

---

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة (٢/ ٩٤، ٩٥) عن ابن إسحاق، حدثني محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي صعصعة المازني أخو بني النجار أن رسول الله ﷺ . معضلاً، وأخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٤٦٥، ٤٦٦) عن يحيى بن سعيد مرسلاً، قال ابن عبد البر: هذا الحديث لا أعرفه مسندًا، وهو محفوظ عند أهل السير.

خاتمة أحد الأعراب الأصحاب

قال شداد بن الهاد: جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه، فقال: أُهاجر معك، فأوصى به بعض أصحابه فلمّا كانت غزوة خيبر، غنم رسول الله ﷺ شيئًا، فَقَسَمه، وقَسَمَ للأعرابي، فأعطى لأصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قَسْمٌ قَسَمَه لك رسول الله ﷺ فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ، فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا، وأشار إلى حلقه بسهم، فأموت فأدخل الجنة، فقال: «إن تصدق الله يصدقك» ثمّ نهض إلى قتال العدو فأتِي به إلى النبي ﷺ وهو مقتول فقال: أهو هو؟ قالوا: نعم، قال: «صدق الله فصدَقَه»، فكفّنه النبي ﷺ في جبته، ثمّ قدمه فصلّى عليه. وكان من دعائه له: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك، قُتِل شهيدًا وأنا عليه شهيد»[1] .

* * *

---

(١) أخرجه النسائي (٤/ ٦٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٢٩١)، والحاكم (٣/ ٥٩٥، ٥٩٦)، والبيهقي في سننه (٤/ ١٥، ١٦)، وإسناده صحيح وهو في صحيح سنن النسائي، وراجع زاد المعاد بتحقيقهما (٣/ ٣٢٤) .

خاتمة معاوية

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال: أقعدوني، فأقعد فجعل يسبح الله تعالى ويذكره، ثم بكى، وقال: تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط! ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان، وبكى حتى علا بكاؤه وقال: يا رب ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي. اللهم أقل العثرة واغفر الزلة، وجُد بحلمك على من لا يرجو غيرك، ولم يثق بأحد سواك.

وروي عن شيخ من قريش: أنه دخل مع جماعة عليه في مرضه فرأوا في جلده غضونًا، فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أما بعد: فهل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بحدتنا وباستلذاذنا بعيشنا، فما لبثت الدنيا أن نقضت ذلك منا حالاً بعد حال، وعروة بعد عروة، فأصبحت الدنيا وقد دمرتنا وأخلفتنا واستلأمت إلينا أفٍ للدنيا من دار، ثمّ أف لها من دار.

* * *

خاتمة معاذ رضي الله عنه

لما حضرت معاذاً رضي الله عنه الوفاة قال: اللهم إني كنت أخافك، وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها، لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر.

ولمّا اشتد به النزع، ونزع نزعًا لم ينزعه أحد، كان كلمّا أفاق من غمرة فتح طرفه، ثم قال: رب ما أخنقنى خنقك فوعزتك إنك تعلم أن قلبي يحبك.

* * *

خاتمة سلمان رضي الله عنه

ولمّا حضرت سلمان الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعًا على الدنيا، ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب[١] . فلمّا مات سلمان نظر في جميع ما ترك، فإذا قيمته بضعة عشر درهمًا.

* * *

خاتمة بلال رضي الله عنه

ولما حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته: واحزناه!! فقال: بل واطرباه! غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه.

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم وصحيحه .

ثانيًا : خاتمة التابعين ومَن بعدهم

خاتمة عبد الملك بن مروان

لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة، نظر إلى غسَّال بجانب دمشق يلوي ثوبًا بيده، ثمّ يضرب به المغسلة، فقال عبد الملك: ليتني كنت غسَّالاً آكل من كسب يدي يومًا بيوم ولم آل من أمر الدنيا شيئًا، فبلغ ذلك أبا حازم فقال: الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه، وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: أجدني كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

* * *

خاتمة عمر بن عبد العزيز

قالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان - امرأة عمر بن عبد العزيز-: كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: اللهم أَخْفِ عليهم موتي ولو ساعة من نهار، فلمّا كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده فجلست في بيت آخر . . بينى وبينه باب وهي في قبة له فسمعته يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] ثمّ هدأ فجعلت لا أسمع حركة ولا كلامًا، فقلت لوصيف له: انظر أنائم هو؟ فلمّا دخل صاح، فوثبت فإذا هو ميّت، وقيل له لما حضره الموت: اعهد يا أمير المؤمنين، قال: أحذركم مثل مصرعي هذا، فإنه لا بد لكم منه، وروي أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دُعي له طبيب، فلمّا نظر إليه قال: أرى الرجل قد سُقي السمّ ولا آمن عليه الموت، فرفع عمر بصره وقال: ولا تأمن الموت أيضًا على من لم يُسق السم؟ قال الطبيب: هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم قد عرفت ذلك حين وقع في بطنى، قال: فتعالج يا أمير المؤمنين، فإني أخاف أن تذهب نفسك، قال: ربي خير مذهوب إليه والله لو علمت أن شقائي تحت شحمة أذنى ما رفعت يدي إلى أذني فتناولته. اللهم خر لعمر في لقائك؛ فلم يلبث أيامًا حتى مات.

وقيل: لما حضرته الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ أبشر فقد أحيا الله بك سننًا، وأظهر بك عدلاً! فبكى ثمّ قال: أليس أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق. فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله تعالى إلا أن يلقنها الله حجتها؛ فكيف بكثير مما

ضيعنا؟ وفاضت عيناه، فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات.

ولمَّا قرب وقت موته قال: أجلسوني! فـأجلسوه، فقال: أنا الذي أمرتني فقـصَّرت، ونهيـتني فعصيـت. ثلاث مرات، ولكن لا إله إلا الله. ثمّ رفع رأسه فـأحد النظـر، فقيل لـه في ذلك، فقـال: إني لأرى حضرة، مـا هم بإنس، ولا جن، ثمّ قبض - رحمه الله-.

* * *

خاتمة هارون الرشيد

إنَّ هارون انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩].

* * *

خاتمة المأمون

فرش المأمون رمادًا واضطجع عليه وكان يقول: يا مَن لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه.

* * *

خاتمة المعتصم

كان يقول: لو علمت أن عمرى هكذا قصير؛ ما فعلت.

* * *

خاتمة عبد الله بن المبارك

عند الوفاة فتح عبد الله بن المبارك عينه، وضحك وقال: ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾[الصافات: ٦١][1] .

* * *

(١) وفي هذا الوقت قال لنصر مولاه: اجعل رأسي على التراب، فبكى نصر، فقال: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيراً غريبًا، قال: اسكت فإني سألت الله أن يحييني حياة الأغنياء، وأن يميتني موت الفقراء، ثم قال له: لقني، ولا تعد علي ما لم أتكلم بكلام ثان.

خاتمة ابن المنكدر

ولمّا حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى، فـقيل له: ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكي لذنب أعلم أني أتيته، ولكن أخاف أني أتيت شيـئًا حسبته هينًا وهو عند الله عظيم.

* * *

خاتمة عامر بن عبد القيس

لمّا حضرت عامر بن عبد القيس الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: مـا أبكي جزعـًا من الموت، ولا حـرصًا على الدنيـا، ولكن أبكي على مـا يفوتني من ظمأ الهواجر، وعلى قيام الليل في الشتاء.

* * *

خاتمة فضيل بن عياض

لما حضرت فضيلاً الوفاة، غُشي عليه، ثم فتح عينيه وقال: وابُعد سفراه واقلة زاداه.

* * *

خاتمة أبى سعيد الخراز

قال رويم: حضرت وفاة أبي سعيد الخراز، وهو يقول:

حنين قلوب العارفين إلى الذكر ... وتذكارهم وقت المناجاة للسر
أديرت كئوس المنايا عليهم ... فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذي الشكر
همومهم جوالة بمعسكر ... به أهل ود الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه ... وأرواحهم في الحُجب في العلا تسري
فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم ... وما عرجوا من مس بؤس ولا ضر

* * *

خاتمة الجُنيد

حُكي أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزعه، فسلَّم عليه، فلم يجبه، ثمّ أجاب بعد ساعة وقال: اعذرني فإني كنت في وردي! ثمّ ولّى وجهه إلى جهة القبلة ومات.

وقيل له وهو في النزع الأخير قل: لا إله إلا الله، قال: ما نسيته فأذكره، وكان آخر حاله مع القرآن أنه ختمه في هذا اليوم وهذا الوقت.

* * *

خاتمة بشر بن الحارث

لما احتضر قيل له: كأنك تحب الحياة؟ قال: القدوم على الله شديد.

* * *

خاتمة سري السقطي

قال الجنيد: دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت: كيف تجدك؟ فأنشأ يقول:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي ... والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت المروحة لأروِّحه فقال:

كيف يجد ريح المروحة من قلبه يحترق؟ ثمّ أنشأ يقول:

القلب محترق والدمع مستبق ... والكرب مجتمعٌ والصبر مفترق

كيف القرار على مَن لا قرار له ... مما جناه الهوى والشوق والقلق

يا رب إن يك شيء فيه لي فرج ... فامنن عليّ به ما دام بي رَمَق

* * *

خاتمة الشبلي

حُكي أن قومًا من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا: قل: لا إله إلا الله فأنشأ يقول:

إنّ بيتًا أنت ساكنهُ غير محتاج إلى السُّرجِ
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحُججِ
لا أتاح الله لي فرجًا يوم أدعو منك بالفرجِ

* * *

خاتمة رويم

قيل له قل: لا إله إلا الله ، قال: لا أحسن غيره.

* * *

خاتمة أحمد بن خضرويه

لما حضرت أحمد بن خضرويه الوفاة سُئِل عن مسألة فدمعت عيناه، وقال: يا بني باب كنت أدقه خمسًا وتسعين سنة، هو ذا يفتح الساعة لي، لا أدري أيفتح بالسعادة أو الشقاوة؟ فآن لي أوان الجواب.

* * *

خاتمة الشافعي

دخل المزني على الشافعي - رحمة الله عليهما- في مرضه الذي توفي فيه، فقال له:

كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقًا، ولسوء عملي مُلاقيًا، ولكأس المنية شاربًا، وعلى الله تعالى واردًا، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأُعزّيها، ثمّ أنشأ يقول:

ولما قسى قلبي وضاقت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سُلَّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منةً وتكرما
ولولاك لم يغوِ بإبليس عابد فكيف وقد أغوىٰ صفيك آدما

* * *

خاتمة أبي علي الروذباري

يحكى عن فاطمة -أخت أبي علي الروذباري- قالت: لما قرب أجل أبي علي الروذباري- وكان رأسه في حجري- فتح عينيه وقال: هذه أبواب السماء قد فتحت، وهذه الجنان قد زُينت، وهذا قائل يقول: يا أبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم تُردها، ثمّ أنشأ يقول:

وحقك لا نظرت إلى سواكا … بعين مودة حتى أراكا
أراك مُعذبي بفتور لحظ … وبالخد المورد من حياكا

* * *

خاتمة محمد بن واسع

كان آخر كلامه: السلام عليكم إلى الجنة، أو إلى النار.

* * *

خاتمة ربعي بن حراش وأخويه

ذكر أبو نعيم في الحلية وابن الجوزي في صفة الصفوة- في ترجمة ربعي ابن حراش-: ربعي بن حراش أحد الأئمة الثقات من رجال الكتب الستة، حلف أنه لن يضحك في هذه الحياة حتى يرى مقعده عند ربه.

ووفّى الرجل بيمينه، فلمّا توفي لم يزل يضحك حتى غُطّي بالتراب.

وذكرها ابن حجر في تهذيب التهذيب عن أخيه مسعود بن حراش، فنقل عن مسعود بن حراش، وأخيه الربيع بن حراش، كل واحد منهما بعد أن مات وسجي كشف كل واحد منهما الغطاء عن وجهه، وقال للحاضرين بصوت يُسمع: إني قدمت على رحيم رحمان، فتلقاني بروح وريحان، ولقيت ربًّا غير غضبان، أسألكم بالله أن تعجلوا بجهازي؛ فإن رسول الله ﷺ ينتظر دفني.

* * *

خاتمة الحافظ

«الذي حفظ خمسمائة ألف حديث»

أبو زُرعة الرازي

ذكر أبو نعيم أن أبا زرعة كان في السوق وعنده أبو حاتم، ومحمد بن مسلمة والمنذر بن شاذان وجماعات من العلماء، فذكروا حديث التلقين، فاستحيوا من أبي زرعة فقالوا: يا أصحابنا تعالوا نتذكر الحديث، فقال محمد بن مسلمة: حدثنا الضحاك بن مخلد، حدثنا أبو عاصم، قال: حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن صالح بن أبي غريب ولم يجاوزه.

وقال أبو حاتم: حدثنا بندار، حدثنا أبو عاصم ، عن عبد الحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي غريب ولم يجاوزه، والباقون سكوت، فقال أبو زرعة: وهو في السوق، حدثنا أبو عاصم، عن عبد الحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي غريب، عن كثير بن مرة الحضرمي، عن معاذ بن جبل: قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»، وفي رواية: «حرَّمه الله على النار»، وتوفي -رحمه الله-.

* * *

خاتمة غُلام

ويُروى عن عبد الله بن شبرمة أنه قال: دخلت مع عامـر الشعبي على مريض نعوده فوجدنـاه لما به، ورجلٌ يلقنه الشهادة ويقول له: لا إله إلا الله وهو يُكثر عليه، فقال له الشـعبي: ارفق به، فتكلم المريض وقال: إن تُلقني أولا تُلقني فإني لا أدعـها ثمّ قرأ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، فقال الشعبي: «الحمد لله الذي نجّى صاحبنا»(١).

أخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن قـال: كان في مصركم هذا رجل عابد، فخرج من المسجد، فلمّا وضع رجله في الركاب، أتاه ملك الموت، فقال له: مرحبًا لقد كنت إليك بالأشواق فقبض روحه(٢).

* * *

---

(١) تذكرة القرطبي (ص٣٥،٣٦) .

(٢) عزاه إليه صاحب التحرير المرسخ: محمد بن طولون الصالحي (٩٥٣هـ) (ص١٥)، ط: دار الصحابة بطنطا .

القبر يتكلم

يُنطق الله- جل وعلا- القبر، فيبشر المؤمن بروضة من رياض الجنة، ويُنذر الفاجر والكافر بحفرة من حفر النيران.

قال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات[١]، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه فيقول: أنا بيت الغربة، وأنا بيت الوحدة، وأنا بيت التراب، وأنا بيت الدود، فإذا دُفن العبد المؤمن قال له القبر: مرحبًا وأهلاً، أما إن كنتُ لأحبُّ من يمشي على ظهري إليّ، فإذا وليتك اليوم صرت إليّ فسترى صنيعي بك، قال: فيتسع له مدّ بصره ويُفتح له باب إلى الجنة.

وإذا دُفن العبد الفاجر أو الكافر، قال له القبر: لا مرحبًا ولا أهلاً، أما إن كنت لأبغض مَن يمشي على ظهري إليّ، فإذا وليتك اليوم وصرت إليّ، فسترى صنيعي بك، قال: فيلتم عليه حتى تلتقي وتختلف أضلاعه، قال: قال رسول الله -ﷺ- بأصابعه فأدخل بعضها في جوف بعض، قال: ويُقيِّض الله له سبعين تنينًا لو أن واحداً منهم نفخ في الأرض، ما أنبتت شيئًا ما بقيت الدنيا، فينهشنه ويخدشنه حتى يُقضى به الحساب، قال: وقال رسول الله ﷺ: إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» [٢].

* * *

(١) يعني: الموت.

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢٣٠٧)، وقال: حسن غريب، وقال محقق التحرير المرسخ: حديث صحيح، وقد صح من روايات أخرى.

حُسن الخاتمة بعد دخول القبر
(لقيت رءوفًا رحيمًا)

قال العباس بن عبد المطلب: كنت أشتهي أن أرى عمر في المنام فما رأيته إلا عند قرب الحول، فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول: هذا أوان فراغي إن كاد عرشي ليهد لولا أن لقيت رءوفًا رحيمًا.

ولما حضرت شُريح بن عابد الثمالي الوفاة، دخل عليه غضيف بن الحارث وهو يجود بنفسه، فقال: يا أبا الحجاج إن قدرت على أن تأتينا بعد الموت فتخبرنا بما ترى فافعل- قال: وكانت كلمة مقبولة في أهل الفقه- قال: فمكث زمانًا لا يراه، ثم رآه في منامه، فقال له: أليس قدمت؟ قال: بلى، قال: فكيف حالك؟ قال: تجاوز ربنا عنا الذنوب، فلم يهلك منا إلا الأحرض. قلت: وما الأحرض؟ قال: الذين يشار إليهم بالأصابع في الشيء.

* * *

أفضل الأعمال الاستغفار

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: رأيت أبي في المنام بعد موته كأنه في حديثه، فدفع إلي تفاحات فأولتهن الولد، فقلت: أي الأعمال وجدت أفضل؟ فقال: الاستغفار أي بني.

* * *

مع أئمة الهدى في جنة عدن

ورأى مسلمة بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز بعد موته، فقال: يا أمير المؤمنين ليت شعري إلى أي الحالات صرت بعد الموت؟ قال: يا مسلمة هذا أوان فراغي والله ما استرحت إلا الآن. قال: قلت: فأين أنت يا أمير المؤمنين؟ قال: مع أئمة الهدى في جنة عدن.

* * *

ذاك في الدرجات العلى

قال صالح البراد: رأيت زرارة بن أوفى بعد موته، فقلت: رحمك الله، ماذا قيل لك؟ وماذا قلت؟ فأعرض عني، قلت: فما صنع الله بك؟ قال: تفضل علي بجوده وكرمه، قلت: فأبو العلاء بن يزيد أخو مطرف؟ قال: ذاك في الدرجات العلى. قلت: فأي الأعمال أبلغ فيما عندك قال: التوكل وقصر الأمل.

* * *

وما تراه يكون من الكريم

وقال مالك بن دينار: رأيت مسلم بن يسار بعد موته، فسلمت عليه، فلم يرد عليّ السلام، فقلت: ما يمنعك أن ترد السلام؟ قال: أنا مت، فكيف أرد عليك السلام؟، فقلت له: ماذا لقيت بعد الموت؟ قال: لقيت والله أهوالاً ، وزلازل عظامًا شدادًا، قال: قلت له: فما كان بعد ذلك؟ قال: وما تراه يكون من الكريم. قبل منا الحسنات، وعفا عنا السيئات، ومحا عنا التبعات. قال: ثم شهق مالك شهقة خر مغشيًا عليه، قال: فلبث بعد ذلك أيامًا مريضًا، ثم انصدع قلبه فمات.

***

الثعبان الأقرع ينتظر تارك الصلاة

حكى الإمام القرطبي أن رجلاً تاركًا للصلاة جاءوا ليدفنوه، وبعد حفر القبر نظروا، فإذا الثعبان الأقرع قد أحال بجنبات القبر، وركض ينتظر قدوم تارك الصلاة، فحفروا له قبرًا آخر، فإذا الثعبان الأقرع قد شق الأرض، وجلس في القبر الثاني، فحفروا له قبرًا ثالثًا، فوجدوا الثعبان الأقرع، فألقوه مع الثعبان الأقرع.

وحكي مثل هذا في زماننا هذا إلا أنهم في المرة الثالثة حاولوا أن يخرجوا الثعبان الأقرع من القبر عن طريق الشرطة، وغيرهم فخرج، وبعد أن دفنوا تارك الصلاة، جاء الثعبان الأقرع وشق الأرض، وأحاط بتارك الصلاة إحاطة السوار بالمعصم، حتى سمع المشيعون صوت تحطيم وتكسير عظام تارك الصلاة.

الثعبان الأقرع يأكل آكل الربا

وحدث هذا لرجل آكل ربا في قرية كرداسة بمحافظة الجيزة بمصر، وأنهم لما أدخلوه القبر، وجدوا الثعبان الأقرع ينتظره، فحفروا قبراً وقبراً وقبراً، ولم يجدوا بُدًّا إلا أن يخرجوا الثعبان، فأخرجوه، ثم جاء فشق الأرض حتى دخل إلى قبر آكل الربا .

* * *

جعلني في المقربين

قال جميل بن مرة: كان مُورِّق العجلي لي أخًا وصديقًا، فقلت له ذات يوم: أينا مات قبل صاحبه فليأت صاحبه فيخبره بالذي صار إليه. قال: فمات مورق فرأته أخته في منامها، كأنه أتانا كما كان يأتي، فقرع الباب كما كان يقرع قالت: فقمت ففتحت له كما كنت أفتح، وقلت: ادخل يا أبا المعتمر إلى باب أخيك. فقال: كيف أدخل وقد ذقت الموت؟ إنما جئت لأعلم جميلاً بما صنع الله بي، أعلميه أنه قد جعلني في المقربين.

* * *

طول الحزن رفع درجة الحسن في الجنة

ولما مات محمد بن سيرين حزن عليه بعض أصحابه حزنًا شديدًا، فرآه في المنام في حال حسنة، فقال: يا أخي، قد أراك في حال يسرني فما صنع الحسن؟ قال: رفع فوقي بسبعين درجة، قلت: ولم ذاك، وقد كنا نرى أنك أفضل منه؟ قال: ذاك بطول حزنه.

* * *

عزلة الناس إذا كثر الفساد

قال ابن عيينة: رأيت سفيان الثوري في النوم، فقال: أوصني، قال: أقلل من معرفة الناس.

وقال عمار بن سيف: رأيت الحسن بن صالح في منامي، فقلت: قد كنت متمنيًا لقائك، فماذا عندك فتخبرنا به؟ فقال: أبشر فإني لم أرَ مثل حسن الظن بالله شيئًا.

ولما مات خثيم العابد رآه بعض أصحابه في المنام، فقال: أما صليت علي؟ قال: فذكرت علة كانت، فقال: أما لو كنت صليت علي نجت رأسك.

* * *

رُفعت في علِيين

ولما ماتت رابعة رأتها امرأة من أصحابها وعليها حلة إستبرق وخمار في سندس، وكانت كفنت في جبة وخمار من صوف، فقالت لها: ما فعلت الجبة التي كفنك في جبة وخمار الصوف؟ قالت: والله إنه نزع عني، وأبدلت به هذا الذي ترين عليّ، وطويت أكفاني وختم عليها، ورفعت في عليين، ليكمل لي ثوابها يوم القيامة، قالت: فقلت لها: لهذا كنت تعملين أيام الدنيا؟ فقالت: وما هذا عندما رأيت من كرامة الله لأوليائه، فقلت لها: فما فعلت عبدة بنت أبي كلاب؟ فقالت: هيهات هيهات سبقتنا والله إلى الدرجات العلى، قالت: قلت: وبم وقد كنت؟

فقالت: يزور الله تبارك وتعالى من يشاء، قالت: قلت: فما فعل بشر ابن منصور؟ قالت: بخ بخ أعطي والله فوق ما كان يأمل، قالت: قلت مريني بأمر أتقرب إلى الله تعالى، قالت: عليك بكثرة ذكر الله فيوشك، أن تغتبطي بذلك في قبرك.

* * *

كيف وجدت طعم الموت؟

ولما مات عـبد العزيز بن سليمـان العابد رآه بعض أصحابه وعليـه ثياب خضر وعلى رأسه إكليل من لؤلؤ، فقـال: كيف كنت بعدنا، وكيف وجدت طعم الموت وكيف رأيت الأمر هناك؟ قال: أما الموت فلا تسأل عن شدة كربه وغمه، إلا أن رحمة الله وارت عنا كل عيب وما تلقانا إلا بفضله.

* * *

أعقبني فرحًا دائمًا

وقال صالح بن بشر: لما مـات عطاء السلمي رأيته في منامي، فقلت: يا أبا محـمد ألست في زمرة الموتى؟ قال: بـلى، قلت: فماذا صرت إليـه بعد الموت؟ قال: صرت والله بعد الموت إلى خير كثير ورب غفور شكور، قال: قلت: أما والله لقد كنت طويل الحزن في دار الدنيا، فتبسم وقال: والله لقد أعقـبني ذلك راحة طويلة وفـرحًا دائمًـا، فقلت: ففـي أي الدرجات أنت؟ قال: مع الذين أنعم الله عليـهم من النبيين والصديقين والشهـداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

* * *

في روضة من رياض الجنة

ولما مات عاصم الجحدري رآه بعض أهله في المنام، فقال: أليس قدمت؟ قال: بلى، قـال: فأين أنت؟ قال: أنا والله فـي روضة من رياض الجنة، أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعـة وصبيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله المزني فنتلقى أخـباركم. قـال: قلت أجسـادكم أم أرواحكم؟ قال: هيـهات بليت الأجساد ، إنما تتلاقى الأرواح.

ورئي الفضيل بن عياض بعد موته فقال: لم أر للعبد خير من ربه.

* * *

كسي موضع السجود نوراً

كان مرة الهمداني يكثر السجود، حتى أكل التراب جبهته، فلما مات رآه رجل من أهله في منامـه، وكأن مـوضع سجـوده كهيئـة الكواكب الدرية، فقـال: ما هذا الأثر الذي أرى بوجهك؟ قـال: كُسِيَ موضع السـجود بأكل التراب له نوراً، قال: قلت: فما منـزلتك في الآخرة؟ قال: خير منزل، دار لا ينتقل عنها أهلها، ولا يموتون.

وقـال أبو يعقـوب القارئ: رأيت فـي منامي رجلاً أدمًـا طوالاً والناس يتبـعونه، قلت: من هذا؟ قالوا: أويس القَرني، فـاتبعته، فـقلت: أوصيني يرحمك الله فكلح في وجهي، فقلت: شر شـر فأرشدني رحمك الله فأقبل عليّ، فقال: اتبع رحمـة الله عند محنته، واحذر رحمته عند معـصيته، ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك، ثم ولى وتركني.

وقال ابن السماك: رأيت مسعـراً في النوم، فقلت: أي الأعمال وجدت

أفضل؟ قال: مجالس الذكر.

وقال أبو بكر بن أبي مريم: رأيت وفاء بن بشر بعد موته، فقلت: ما فعلت يا وفاء؟ قال: نجوت بعد كل جهد، قلت: فأي الأعمال وجدتموها أفضل؟ قال: البكاء من خشية الله عز وجل.

وقال الليث بن سعد، عن موسى بن وردان أنه رأى عبد الله بن أبي حية بعد موته، فقال: عرضت عليّ حسناتي وسيئاتي، فرأيت في حسناتي حبات رمان التقطهن فأكلتهن، ورأيت في سيئاتي خيط حرير كان في قلنسوتي.

* * *

تستعجل قدومه إلى القبر

وقال سعيد بن داود: حدثني ابن أخي جويرية بن أسماء، قال: كنا بعبَّادان فقدم علينا شاب من أهل الكوفة مُتعبِّد فمات بها في يوم شديد الحر فقلت نبرد ثم نأخذ في جهازه، فنمت فرأيت كأني في المقابر، فإذا بقبة جوهر تتلألأ حسنًا، وأنا أنظر إليه، إذا انفلقت فأشرقت فيها جارية ما رأيت مثل حسنها فأقبلت عليّ، فقالت: بالله لا تحبسه عنا إلى الظهر قال: فانتبهت فزعًا وأخذت في جهازه، وحفرت له قبرًا في الموضع الذي رأيت فيه القبة فدفنته فيها.

* * *

أفضل الأعمال ما كان خالصًا

وقال عبد الملك بن عتاب الليثي: رأيت عامر بن قيس في النوم، فقلت: أي الأعمال وجدت أفضل؟ قال: ما أُريد به وجه الله عز وجل.

* * *

غفر لها بالصوم والصلاة

وقال يزيد بن هارون: رأيت أبا العلاء أيوب بن مسكين في المنام، فقلت: ما فعل بك ربك؟ قال: غفر لي، قلت: ولماذا؟ قال: بالصوم والصلاة، قلت: أرأيت منصور بن زاذان، قال: هيهات ذاك نرى قصره من بعيد.

* * *

أخبريني عن الآخرة

وقال يزيد بن نعامة: هلكت جارية في طاعون جارف، فلقيها أبوها بعد موتها، فقال لها: يا بنية أخبريني عن الآخرة، قالت: يا أبت قدمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في صحيفة عملي أحب إليّ من الدنيا وما فيها.

وقال كثير بن مرة: رأيت في منامي كأني دخلت درجة علياء في الجنة فجعلت أطوف بها، وأتعجب فيها، فإذا أنا من نساء المسجد في ناحية منها فذهبت حتى سلمت عليهن، ثم قلت: بما بلغتن هذه الدرجة؟ قلن: بسجدات أو بتكبيرات .

يُنادي المنادي: أين أبو بكر؟ أين عمر؟

وقال مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز: عن فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر بن عبد العزيز، قالت: انتبه عمر بن عبد العزيز ليلة، فقال: لقد رأيت رؤيا معجبة، قالت: فقلت: جعلت فداءك فأخبرني بها، فقال: ما كنت لأخبرك بها حتى أصبح، فلما طلع الفجر خرج، فصلى، ثم عاد إلى مجلسه، فاغتنمت خلوته، فقلت: أخبرني بالرؤيا التي رأيت، قال: رأيت كأني رفعت إلى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر، وإذا فيها قصر أبيض كأنه الفضة، وإذا خارج قد خرج من ذلك القصر، فهتف بأعلى صوته يقول: أين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟ أين رسول الله؟ إذ أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل ذلك القصر.

قال: ثم إن آخر خرج من ذلك القصر، فنادى: أين أبو بكر الصديق؟ أين ابن أبي قحافة؟ إذ أقبل أبو بكر حتى دخل ذلك القصر، ثم خرج آخر فنادى: أين عمر بن الخطاب؟، فأقبل عمر حتى دخل ذلك القصر، ثم خرج آخر فنادى: أين عثمان بن عفان؟، فأقبل حتى دخل ذلك القصر، ثم خرج آخر فنادى: أين علي بن أبي طالب؟ فأقبل حتى دخل ذلك القصر، ثم إن آخر خرج فنادى: أين عمر بن عبد العزيز؟

قال عمر: فقمت حتى دخلت ذلك القصر، قال: فدفعت إلى رسول الله ﷺ والقوم حوله، فقلت بيني وبين نفسي: أين أجلس؟ فجلست إلى جنب أبي عمر بن الخطاب، فنظرت فإذا أبو بكر عن يمين النبي ﷺ، وإذا عمر عن يساره، فتأملت فإذا بين رسول الله ﷺ وأبي بكر رجل، فقلت: من هذا الرجل الذي بين رسول الله ﷺ وبين أبي بكر؟ فقال: هذا عيسى

ابن مريم، فسمعت هاتفًا يهتف وبيني وبينه ستر نور: يا عمر بن عبد العزيز؟ تمسَّك بما أنت عليه، وأنت على ما أنت عليه، ثم كأنه أُذن لي في الخروج، فخرجت من ذلك القصر، فالتفت خلفي فإذا أنا بعثمان بن عفان وهو خارج من ذلك القصر، يقول: الحمد لله الذي نصرني، وإذا علي بن أبي طالب في أثره خارج من ذلك القصر، وهو يقول: الحمد لله الذي غفر لي.

* * *

علي ومعاوية – رضي الله عنهما – في الجنة

وقال سعيد بن أبي عروبة عن عمر بن عبد العزيز: رأيت رسول الله وأبي بكر وعمر جالسان عنده فسلمت وجلست، فبينا أنا جالس إذ أتي بعلي ومعاوية فأدخلا بيتًا وأجيف عليهما الباب، وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول: قضي لي ورب الكعبة، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة.

وقال حماد بن أبي هاشم: جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز، فقال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، وأبي بكر عن يمينه، وعمر عن شماله، وأقبل رجلان يختصمان وأنت بين يديه جالس، فقال لك: يا عمر إذا عملت فاعمل بعمل هذين: لأبي بكر وعمر، فاستحلفه عمر بالله أرأيت هذه الرؤيا؟ فحلف، فبكى عمر.

وقال عبد الرحمن بن غنم: رأيت معاذ بن جبل بعد وفاته بثلاث على فرس أبلق وخلفه رجاله بيض عليهم ثياب خضر على خيل بلق وهو قدامهم وهو يقول: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾

[يس:٢٦،٢٧]، ثم التـفت عن يمينه وشـمـاله، يقـول: يا ابن رواحـة! يا ابن مظعون! ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

* * *

نظر إلى ربه عياناً

وقال قبيصة بن عتبـة: رأيت سفيان الثوري في المنام بعد موته، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال:

نظرت إلى ربي عـيـانًا فـقـال لي ... هنيـئًا رضـايا عنك يا ابن سـعيـد
فـقد كنت قـوامًا إذا الليل قـد جَنّ ... بعـبـرة مـحـزون وقلب عـمـيـد
فـدونكَ فـاختـرْ أي قـصـرٍ تُريدُه ... وزُرني فـإنـي منك غـيـر بعـيـد

* * *

يطير في الجنة من نخلة إلى شجرة

وقال سفيان بن عيينة: رأيت سفيان الثوري بعد موته يطير في الجنة من نخلة إلى شجرة، ومن شجرة إلى نخلة، وهو يقول: لمثل هذا فليعمل العاملون، فقيل له: بم أدخلت الجنة؟ قال: بالورع بالورع، قيل له: فما فعل علي بن عاصم؟ قال: ما نراه إلا مثل الكوكب.

وكان شعبة بن الحجاج ومسعر بن كدام حافظين وكانا جليلين، قال أبو أحمد البريدي: فرأيتهما بعد موتهما فقلت: أيا شعبة ما فعل الله بك؟ فقال: وفقك الله لحفظ ما أقول:

حيَّاني إلهي في الجنان بِقُبَّة ... لها ألفُ بابٍ من الجُيْنِ وجوهرا
وقال لي الرحمن يا شعبة الذي ... تبحَّر في جمع العلوم فأكثرا
تنعَّم بقُربي إني عنك ذو رضا ... وأكشف عن وجهي الكريم لينظرا
وهذا فعالي بالذين تمسكوا ... ولم يألفوا في سالف الدهر مُنكرا

* * *

أباحه الله النظر إلى وجهه الكريم

قال أحمد بن محمد اللبدي: رأيت أحمد بن حنبل في النوم ، فقلت: يا أبا عبد الله ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، ثم قال: يا أحمد ضُربتَ فيَّ ستين سوطًا؟ قلت: نعم يا رب قال: هذا وجهي قد أبحتك فانظر إليه.

* * *

تُحلِّيه الملائكة تحت شجرة طُوبى

وقال أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج: حدثني رجل من أهل طوس، قال: دعوت الله عز وجل أن يريني أهل القبور؛ حتى أسألهم عن أحمد بن حنبل ما فعل الله به؟ فرأيت بعد عشر سنين في المنام كأن أهل القبور قد قاموا على قبورهم فبادروني بالكلام ، فقالوا: يا هذا كم ندعو الله عز وجل أن يريك إيانا تسألنا عن رجل لم يزل منذ فارقكم تحليه الملائكة تحت شجرة طوبى.

قال أبو محمد عبد الحق: وهذا الكلام من أهل القبور إنما هو إخبار عن علو درجة أحمد بن حنبل وارتفاع مكانته، وعظم منزلته، فلم يقدروا، أن يُعبِّروا عن صفة حاله، وعمَّا هو فيه إلا بهذا، وما هو في معناه.

* * *

زرنا كليم الله موسى - عليه السلام

وقال أبو جعفر السقـاء - صاحب بشر بن الحارث-: رأيت بشر الحافي ومعروف الكرخي وهما جائيـان، فقلت: من أين؟ فقالا: من جنة الفردوس زرنا كليم الله موسى.

* * *

يأكل أمام الله تعالى

قال عاصم الجزري: رأيت في النوم أني لقيت بشر بن الحارث، فقلت: من أين يا أبا بشر؟ قال: من عليين، قلت: فمـا فعل أحمد بن حنبل؟ قال: تركته الساعة مع عبد الوهاب الوراق بين يدي الله عز وجل يأكلان ويشربان، فقلت له: فأنت؟ قال: علم قلة رغبتي في الطعام فأباحني النظر إليه.

* * *

غفر لمن تبع جنازته

وقال أبو جـعفـر السقـاء: رأيت بشر بن الحـارث في النوم بعد مـوته، فقلت: يا أبا نصـر: ما فعل الله بك؟ قال: ألطفني ورحـمني، وقال لي: يا بشر لو سجـدت لي في الدنيا على الحجر ما أديت شكر مـا حشوت قلوب عبادي منك، وأباح لي نصف الجنـة فأسرح فيها حـيث شئت، ووعدني أن يغفـر لمن تبع جنازتي. فقلت: مـا فعل أبو نصـر التجار؟ فقـال: ذاك فوق الناس بصبره على بلائه وفقره.

قال عبد الحق: لعله أراد بقوله: نصف الجنة نصف نعيـمها؛ لأن نعيمها

نصفان نصف روحاني ونصف جسماني، فينعمون أولاً بالروحاني، فإذا ردت الأرواح إلى الأجساد أضيف لهم النعيم الجسماني إلى الروحاني، وقال غيره: نعيم الجنة مرتب على العلم والعمل، وحظ بشر من العمل كان أوفى من حظه في العلم، والله أعلم.

* * *

أقربكم المسارع إلى طاعة الله

وقال بعض الصالحين: رأيت أبا بكر الشبلي في المنام وكأنه قاعد في مجلسه بالرصافة بالموضع الذي كان يقعد فيه وإذا به قد أقبل وعليه ثياب حسان فقمت إليه وسلمت عليه وجلست بين يديه، فقلت له: من أقرب أصحابك إليك؟ قال: ألهجهم بذكر الله وأقومهم بحق الله وأسرعهم مبادرة في مرضاة الله.

* * *

رؤية الأموات مناماً

قال أبو عبد الرحمن الساجي: رأيت ميسرة بن سليم في المنام بعد موته فقلت له: طالت غيبتك، فقال: السفر طويل، فقلت له: فما الذي قدمت له؟ فقال: رخّص لي لأنا كنا نفتي بالرخص، فقلت: فما تأمرني به؟ قال: اتباع الآثار، وصحبة الأخيار، ينجيان من النار ويقربان من الجبار.

* * *

الحور معه في القبر

قال أبو جعفر الضرير: رأيت عيسى بن زاذان بعد موته. فقلت: ما فعل الله بك؟ فأنشأ يقول:

لو رأيتَ الحسانَ في الخلدِ حولي وأكاويب معها للشرابِ
يترنمنَّ بالكتابِ جميعا يتمشين مُسْبِلات الثياب

* * *

القبر عليه خَيمة وسرادق

قال بعض أصحاب ابن جريج: رأيت كأني جئت إلى هذه المقبرة التي بمكة فرأيت على عامتها سرادقًا ورأيت منها قبرًا عليه سرادق وفسطاط وسدرة. فجئت حتى دخلت فسلمت عليه، فإذا مسلم بن خالد الزنجي، فسلمت عليه وقلت: يا أبا خالد، ما بال هذه القبور عليها سرادق وقبرك عليه سرادق وفسطاط وفيه سدرة [أي: شجرة]؟ فقال: إني كنت كثير الصيام. فقلت: فأين قبر ابن جريج وأين محله؟ فقد كنت أجالسه وأنا أحب أن أسلم عليه. فقال: هكذا - بيده - هيهات، وأدار أصبعه السبابة، وأين ابن جريج؟! رفعت صحيفته في عليين.

* * *

أطال الله راحته كما تعب في الدنيا

رأي حماد بن سلمة في النوم بعض الأصحاب فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: قال لي: طال ما كددت نفسك في الدنيا، فاليوم أطيل راحتك وراحة المتعبين.

وهذا باب طويل جدًّا فإن لم تسمح نفسك بتصديقه وقلت: هذه منامات وهي غير معصومة فتأمل من رأى صاحبًا له، أو قريبًا أو غيره، فأخبره برمز لا يعلمه إلا صاحب الرؤيا، أو أخبره بمال دفنه، أو حذره من أمر يقع، أو بشره بأمر يوجد فوقع كما قال، أو أخبره بأنه يموت هو أو بعض أهله إلى كذا وكذا فيقع كما أخبر، أو أخبره بخصب أو جدب أو عدو نازله أو مرض، أو بعرض له فوقع كما أخبره.

* * *

استبشار الأموات بزيارة الأحياء

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال: إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه، وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام.

* * *

أنا والله في روضة من رياض الجنة

حدثنا محمد بن الحسين، حدثني يحيى بن بسطام الأصغر، حدثني مسمع، حدثني رجل من آل عاصم الجحدري، قال: رأيت عاصمًا الجحدري في منامي بعد موته بسنتين، فقلت: أليس قدمت؟ قال: بلى. قلت: فأين أنت؟ قال: أنا والله في روضة من رياض الجنة، أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني فنتلقى أخباركم. قال: قلت: أجسادكم أم أرواحكم؟ قال هيهات، بليت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح. قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعم، نعلم بها عشية الجمعة كله، ويوم السبت إلى طلوع الشمس. قال: قلت: فكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمته.

حدثنا حسن القصاب، قال: كنت أغدو مع محمد بن واسع في كل غداة سبت حتى نأتي الجبانة، فنقف على القبور فنسلم عليهم وندعو لهم، ثم ننصرف، فقلت ذات يوم: لو صيرت هذا اليوم يوم الإثنين؟ قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويومًا قبلها ويومًا بعدها.

حدثنا سفيان الثوري، قال: بلغني عن الضحاك أنه قال: من زار قبرًا

يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمعة.

حدثنا خالد بن خداش، حدثنا جعفر بن سليمان، عن أبي التياح قال: كان مطرف يغدو فإذا كان يوم الجمعة أدلج قال: وسمعت أبا التياح يقول: بلغنا أنه كان ينور له في سوطه، فأقبل ليلة حتى إذا كان عند مقابر القوم وهو على فرسه، فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالسًا على قبره، فقالوا: هذا مطرف يأتي الجمعة، قلت: وتعلمون عندكم يوم الجمعة؟ قالوا: نعم، ونعلم ما يقول فيه الطير. قلت: وما يقولون؟ قالوا: يقولون: سلام سلام.

حدثني محمد بن الحسين، حدثني يحيى بن أبي بكير، حدثني الفضل ابن موفق ابن خال سفيان بن عيينة قال: لما مات أبي جزعت عليه جزعًا شديدًا فكنت آتي قبره في كل يوم، ثم قصرت عن ذلك ما شاء الله، ثم إني أتيته يومًا، فبينا أنا جالس عند القبر غلبتني عيناي، فنمت فرأيت كأن قبر أبي قد انفرج، وكأنه قاعد في قبره متوشحًا أكفانه عليه سحنة الموتى قال: فكأني بكيت لما رأيته، قال: يا بني، ما أبطأ بك عني؟ قلت: وإنك لتعلم بمجيئي؟ قال: ما جئت مرة إلا علمتها، وقد كنت تأتيني فآنس بك وأسر بك ويسر من حولي بدعائك، قال: فكنت آتيه بعد ذلك كثيرًا.

* * *

لا تخذلني عند الموت

حدثني محمد، حدثني يحيى بن بسطام، حدثني عثمان بن سودة الطفاوي قال: وكانت أمه من العابدات- وكان يقال لها راهبة- قال: لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء، فقالت: يا ذخري وذخيرتي، ومن عليه اعتمادي في حياتي وبعد موتي، لا تخذلني عند الموت، ولا توحشني في قبري، قال: فماتت فكنت آتيها في كل جمعة، فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ذات يوم في منامي، فقلت لها: يا أمه كيف أنت؟ قالت: أي بني، إن للموت كربة شديدة، إني بحمد الله لفي برزخ محمود، نفترش فيه الريحان، ونتوسد فيه السندس والإستبرق إلى يوم النشور. فقلت لها: ألك حاجة؟ قالت: نعم، قلت: وما هي؟ قالت: لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا، والدعاء لنا، فإني لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك. يقال لي: يا راهبة، هذا ابنك قد أقبل فأسر ويسر بذلك من حولي من الأموات.

* * *

الأموات يزورون الحي

حدثني محمد بن عبد العزيز بن سليمان، حدثنا بشر بن منصور، قال: لما كان زمن الطاعون، كان رجل يختلف إلى الجبان، فيشهد الصلاة على الجنائز فإذا أمسى وقف على باب المقابر، فقال: آنس الله وحشتكم، ورحم غربتكم، وتجاوز عن مسيئكم وقبل حسناتكم، لا يزيد على هؤلاء الكلمات، قال: فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلي ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو. قال: فبينا أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاءوني، فقلت: من أنتم وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر. قلت: ما حاجتكم؟ قالوا: إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك، قلت: وما هي؟ قالوا: الدعوات التي كنت تدعو بها. قال: قلت: فإني أعود لذلك، قال: فما تركتها بعد.

حدثني محمد، حدثني أحمد بن سهل، حدثني رشدين بن سعد عن رجل عن يزيد بن أبي حبيب، أن سليم بن عمير مر على مقبرة وهو حاقن قد غلبه البول فقال له بعض أصحابه: لو نزلت إلى هذه المقابر، فبلت في بعض حفرها، فبكى ثم قال: سبحان الله، والله إني لأستحيي من الأموات كما أستحيي من الأحياء ولولا أن الميت يشعر بذلك لما استحيا منه.

وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحي من أقاربه وإخوانه. قال عبد الله بن المبارك: حدثني ثور بن يزيد عن إبراهيم عن أبي أيوب، قال: تعرض أعمال الأحياء على الموتى، فإذا رأوا حسنًا فرحوا واستبشروا، وإن رأوا سوءًا، قالوا: اللهم ارجع به.

وذكر ابن أبي الدنيا عن أحمد بن أبي الحواري، قال: حدثني محمد

أخي، قال: دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين، فقال: عظني. قال: بِمَ أعظك أصلحك الله؟ بلغني أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك. فبكى إبراهيم حتى اخضلت لحيته.

قال ابن أبي الدنيا: وحدثني محمد بن الحسين، حدثني خالد بن عمر الأموي، حدثنا صدقة بن سليمان الجعفري، قال: كانت لي شرة سمجة فمات أبي فأنبتُ وندمت على ما فرطت، قال: ثم زللت أيما زلة، فرأيت أبي في المنام، فقال: أي بني؛ ما كان أشد فرحي بك، أعمالك تعرض علينا فتشبهها بأعمال الصالحين، فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياءً شديداً فلا تخزني فيمن جولي من الأموات. قال: فكنت أسمعه بعد ذلك يقول في دعائه في السحر- وكان جاراً لي بالكوفة-: أسألك إنابة لا رجعة فيها ولا حور. يا مصلح الصالحين ويا هادي المضلين ويا أرحم الراحمين.

وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول: اللهم إني أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله.

ويكفي في هذه تسمية المسلِّم عليهم زائراً، ولولا أنهم يشعرون به لما صح تسميته زائراً، فإن المزور إن لم يعلم زيارة من زاره لم يصح أن يقال زاره، هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم، وكذلك السلام عليهم أيضًا فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلم محال، وقد علَّمَ النبي ﷺ أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا: «سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية» رواه البخاري ومسلم.

وهذا السلام والخطاب والنداء موجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المُسَلِّم الرد، وإذا صلى الرجل قريبًا منهم شاهدوه وعلموا صلاته وغبطوه على ذلك.

قال يزيد بن هارون: أخبرنا سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي أن ابن عباس خرج في جنازة في يوم وعليه ثياب خفاف فانتهى إلى قبر قال: فصليت ركعتين، ثم اتكأت عليه، فوالله إن قلبي ليقظان إذ سمعت صوتًا من القبر: إليك عني لا تؤذني فإنكم قوم تعملون ولا تعلمون، ونحن قوم نعلم ولا نعمل، ولأن يكون لي مثل ركعتيك أحب إلي من كذا وكذا، فهذا قد علِم باتكاء الرجل على القبر وبصلاته.

* * *

مع النبيين والصديقين

وقد تواترت المرائي بذلك، فمنها ما ذكره صالح بن بشير، قال: رأيت عطاء السلمي في النوم بعد موته، فقلت له: يرحمك الله، لقد كنت طويل الحزن في الدنيا، فقال: أما والله لقد أعقبني ذلك فرحًا طويلاً وسروراً دائمًا، فقلت: في أي الدرجات أنت؟ قال: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

* * *

لَقِيَ محمداً وحزبه

وقال عبد الله بن المبارك: رأيت سفيان الثوري في النوم، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: لقيت محمداً وحزبه.

* * *

غفر له مغفرة أحاطت بكل ذنب

وقال صخر بن راشد: رأيت عبد الله بن المبارك في النوم بعد موته فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى. قلت: فما صنع الله بك؟ قال: غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب. فقلت: فسفيان الثوري؟ قال: بخٍ بخٍ. ذاك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

* * *

رفع إلى أصحاب اليمين ثمَّ إلى درجة المقربين

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث حماد بن زيد عن هشام بن حسان، عن يقظة بنت راشد قالت: كان مروان المحلمي لي جاراً، وكان قاضياً مجتهداً، قالت: فمات فوجدت عليه وجداً شديداً، قالت: فرأيته فيما يرى النائم، قلت: أبا عبد الله، ما صنع بك ربك؟ قال: أدخلني الجنة. قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم رفعت إلى أصحاب اليمين. قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم رفعت إلى المقربين. قلت: فمن رأيت من إخوانك؟ قال: رأيت الحسن، وابن سيرين، وميمون بن سياه.

* * *

متكئ على سرير من ذهب

قال حماد: قال هشام بن حسان: فحدثتني أم عبد الله - وكانت من خيار نساء أهل البصرة- قالت: رأيت فيما يرى النائم كأني دخلت داراً حسنة، ثم دخلت بستانًا فذكر من حسنه ما شاء الله، فإذا أنا فيه برجل متكئ على سرير من ذهب، ومعه الوصفاء بأيديهم الأكاويب. قالت: فإني لمتعجبة من حسن ما أرى، إذ قيل: هذا مروان المحلمي أقبل، فوثب فاستوى جالسًا على سريره، قالت: واستيقظت من منامي، فإذا جنازة مروان قد مرَّ بها على بابي تلك الساعة.

وقد جاءت سنة صريحة بتلاقي الأرواح وتعارفها.

وهذا عمير بن وهب أتي في منامه، فقيل له: قم إلى موضع كذا وكذا من البيت فاحفره تجد مال أبيك، وكان أبوه قد دفن مالاً ومات ولم يوص

به، فقام عمير من نومه فاحتفر فأصاب عشرة آلاف درهم وتبراً (ذهبًا) كثيراً فقضى دينه وحسن حاله وحال أهل بيتـه، وكان ذلك عقب إسلامه، فقالت له الصـغرى من بـناته: يا أبت، ربنا هذا الذي أحـيانا بدينـه خيـر من هُبل والعزى، ولولا أنه كذلك ما ورثك هذا المال، وإنما عبدته أيامًا قلائل.

وما حـديث عميـر هذا واستخـراجه المال بالمنام بأعـجب مما كان عندنا وشاهدناه في عـصرنا بمدينتنا من أبي مـحمد بن عـبد الله البغـانشي، وكان رجلاً صالحًـا مشهوراً برؤية الأموات وسؤالهم عـن الغائبات ونقله ذلك إلى أهلهم وقراباتهم حتى اشتهر بذلك وكـثر منه، فكان المرء يأتيه فيشكو إليه أن حميمـه قد مات من غير وصيـة وله مال لا يهتدي إلى مكانه، فيـعده خيراً ويدع الله تعالى في ليلتـه، فيتـراءى له الميت الموصوف، فيسـأله عن الأمر، فيخبره به.

فمن نوادره: أن امرأة عجوزاً من الصالحات توفيت وتركت عندها سبعة دنانير وديعة، فجاءت إليه صاحبة الوديعة، وشكت إليه ما نزل بها، وأخبرته باسمها واسم الميتة صاحبتـها، ثم عادت إليه من الغد، فقال لها: تقول لك فلانة عدي من سقف بيتي سبع خشبـات تجدي الدنانير في السابعة في خرقة صوف، ففعلت ذلك فوجدتها كما وصف لها[١].

* * *

(١) القصص السابقة في كتاب المنامات لابن أبي الدنيا، والروح لابن القيم.

معنى سوء الخاتمة

هي أن الإنسان إذا وصل لدرجة السياق وحل عليه النزع واشتد به الكرب، ونزلت به سكرات الموت يعتريه الشك أو الجحود فيختم له بما يوجب له في النار الخلود. أو يختم له بما يؤدي إلى دخوله النار فترة، ثمّ يخرج في أول لقاء بينه وبين رب السماء، يظهر جحوده وشكّه أو إنكاره وإعراضه.

فمَن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، فافتضح في أول لقاء قبل أن يدخل إلى دار البرزخ.

وبادئ ذي بدء نلجأ إلى الله تعالى أن يرزقنا حسن الخاتمة: يا الله.

أسير الخطايا عند بابكَ يقرعُ ... يخافُ ويرجو الفضلَ فالفضلُ أوسعُ
مقر بأثقال الذنوب ومُكْثر ... ويرجوك في غفرانها فهو يطمعُ
فإنك ذو الإحسان والجود والعطا ... لك المجد والإفضال والمنُ أجمعُ
فكم من قبيح قد سترت عن الورى ... وكم نعم تترى علينا وتتبعُ
ومن ذا الذي يُرجى سواك ويتقى ... وأنت إله الحق ما شئت تصنعُ
فيا من هو القدوس لا رب غيره ... تباركت أنت الله الخالقُ مرجعُ
ويا من على العرش استوى فوق خلقه ... تباركت تعطي من تشاءُ وتمنعُ
بأسمائك الحسنى وأوصافك العلا ... توسل عبد بائس يتضرع
أعنّي على الموت المريرة كأسه ... إذا الروح من بين الجوانح تنزع
وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما ... يركم من فوقي التراب وأودع
وثبّت جناني للسؤال وحجتي ... إذا قيل من رب ومن كنت تتبع
ومن هول يوم المحشر والكرب نجني ... إذا الرسل والأملاك والناس خُشع

ويا سيدي لا تُخزني في صحيفتي إذا الصحف بين العالمين تُوزعُ
وهب لي كتابي باليمين وثقلني لميزان عبد في رجائك يطمع
ويا رب خلصني من النار إنها لبئس مقر للغواة ومرجع
أجرني أجرني يا إلهي فليس لي سواك مفر أو ملاذٌ ومَفْزَعُ
وهب لي شفاء منك ربي سيدي فمَن ذا الذي الضرّ غيرك يَدْفَعُ
فأنت الذي تُرجى لكشف مُلمة وتسمع مضطرًا لبابك يقرع
فقد أعيت الأسباب وانقطع الرجا سوى منك يا مَن للخلائق مفزع
إليك إلهي رفعت شكايتي وأنت بما ألقاه تدري وتسمع
ففرج لنا خَطْبًا عظيمًا ومُعْضلا وكربٌ يكاد القلب منه يُصدع

* * *

فتنة الموت

إن العبد إذا كان عند الموت قعد عنده شيطانان الواحد عن يمينه، والآخر عن شـماله، فـالذي عن يمينه على صـفة أبيـه، يقـول له: يا بني إني كنت عليك شفيقًا ولك مُحبًا، ولكن مت على دين النصرانية فـهو خير الأديان، والذي على شماله على صفة أمه. تقول له: يا بني إنه كان بطني لك وعاء، وثديي لك سقاء، وفخذي لك وطاء، ولكـن مت على دين اليهود وهو خير الأديان.

يا أيها الساهي الغافل:

عند استقرار النفس في التراقي والارتفاع، تعرض عليه الفتن، وذلك أن إبليس قد أنفذ أعوانه إلى هذا الإنسان خاصـة واستعملهم عليه ووكلهم به، فيـأتون المرء وهو على تلك الحـال، فيتـمثلون له في صـورة من سلف من الأحبـاب، الموتى البـاغين له الـنصح في دار الدنيـا، كـالأب والأم والأخ والأخت والصديق والحميم، فيقولون له:

أنت تموت يا فـلان ونحن قد سبـقناك في هذا الشـأن فمت يهوديًا فهو الدين المقبول عند الله تعالى، فـإن انصرم عنهم وأبى، جاءه آخرون، وقالوا له: مت نصرانيًا فإنه دين المسيح، وقـد نسخ الله به دين موسى، ويذكرون له عقائد كل مـلة، فعند ذلك يزيغ الله من يريد زيغه وهو معنى قـوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران:٨]، أي: لا تزغ قلوبنا عند الموت، وقد هديتـنا من قبل هذا زمانًا، فإذا أراد الله بعـبده هداية وتثبيـتًا جـاءته الرحـمة، وقـيل: هو جبـريل- عليـه السلام- فـيطرد عنه الشيـاطين، ويمسح الشحـوب عن وجهه، فـيبتـسم الميت، وكثـيرًا من يرى

مبتسمًا في هذا المقام؛ فرحًا بالبشير الذي جاءه من الله تعالى، فيقول: يا فلان أما تعرفني؟ أنا جبريل وهؤلاء أعداؤك من الشياطين، مت على الملة الحنيفية والشريعة الجليلة، فما شيء أحب إلى الإنسان وأفرح منه بذلك الملك، وهو قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ ثم يقبض عند الطعنة.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: حضرت وفاة أبي، وبيدي الخرقة لأشد لحيته، فكان يغرق ثم يفيق، ويقول بيده لا بُعداً لا بُعداً.

فعل هذا مراراً فقلت له: يا أبت أي شيء ما يبدو منك؟ فقال: إن الشيطان قائم بحذائي عاض على أنامله يقول: يا أحمد فُتني، وأنا أقول: لا بعد لا حتى أموت.

وقال أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي(١):

حضرت أخا شيخنا أحمد بن محمد بن محمد القرطبي بقرطبة وقد احتضر، فقيل له: قل: لا إله إلا الله، فكان يقول: لا. لا. فلما أفاق ذكرنا له ذلك، فقال: أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي يقول أحدهما: مت يهوديًا فإنه خير الأديان، والآخر يقول: مت نصرانيًا فإنه خير الأديان، فكنت أقول لهما: لا. لا إليَّ تقولان هذا؟

وهذا ومثله عن الصالحين كثير، يكون الجواب للشيطان لا، لما يلقنه الشهادة.

* * *

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبي.

مراتب سوء الخاتمة

سوء الخاتمة على رتبتين: إحداهما أعظم من الأخرى:

فأما الرتبة العظيمة الهائلة فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله: إمّا الشك وإمّا الجحود، فتقبض الروح على حالة غلبة الجحود، أو الشك، فيكون ما غلب على القلب من عقيدة الجحود حجابًا بينه وبين الله تعالى، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

والثانية: وهي دونها - أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه، ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره، فيتفق قبض روحه في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسًا رأسه إلى الدنيا وصارفًا وجهه إليها.

ومهما حصل الحجاب، نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه.

فأما المؤمن السليم قلبه من حب الدنيا، المصروف همه إلى الله تعالى، فكأن النار تقول له: جُز يا مؤمن فإنّ نورك أطفأ لهبي.

فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا، فالأمر مخطر: لأن المرء يموت على ما عاش عليه، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه، إذ لا تصرف في القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال، فلا مطمع في عمل، ولا مطمع في رجوع إلى الدنيا ليتدارك، وعند ذلك تعظم الحسرة، إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة، وتأكد ذلك

بالأعمال الصالحة، فإنه يمحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت، فإن كان إيمانه في القوة إلى حد مثقال أخرجه من النار في زمان أقرب، وإن كان أقل من ذلك طال مكثه في النار، ولو لم يكن إلا مثقال حبّة فلا بد أن يخرجه من النار ولو بعد آلاف السنين.

* * *

السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة

اعلم أن أسباب سوء الخاتمة لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها.

أمّا الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين:

أحدهما: يتصور مع الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال، كالمبتدع الزاهد، فإن عاقبته مُخطرة جدًا، وإن كانت أعماله صالحة، ولست أعني مذهبًا فأقول: إنه بدعة، فإنّ بيان ذلك يطول القول فيه، بل أعني بالبدعة أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ما هو عليه، إما برأيه ومعقوله ونظره الذى به يجادل الخصم وعليه يعوّل وبه يغتر، وإمّا أخذًا بالتقليد ممن هذا حاله، فإذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلاً، إذ حال الموت كشف الغطاء ومبادئ سكراته منه، فقد ينكشف به بعض الأمور، فمهما بطل عنده ما كان اعتقده، وقد كان قاطعًا به متيقنًا له عند نفسه، لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد، خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد، وعقله الناقص، بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له، إذ لم يكن عنده فرق في إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببًا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها.

فإن اتفق خروج روحه في هذه الخطرة، قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان، فقد ختم له بالسوء، وخرجت روحه على الشرك، والعياذ بالله

منه، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]. وبقوله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]

وكما أنه ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل، وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب، فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور، إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت، فيطالع ما في اللوح المحفوظ، لتنكشف له الأمور على ما هي عليه.

* وإليك نموذج لسوء الخاتمة المؤدي إلى الكفر:

يروى عن وهب بن منبه قال: كان عابد في بني إسرائيل وكان أعبد أهل زمانه، وكان في زمانه ثلاثة إخوة، لهم أخت، وكانت بكراً، ليس لهم أخت غيرها، فخرج البعث على ثلاثتهم، فلم يدروا عند من يخلفون أختهم، ولا من يأمنون عليها، ولا عند من يضعونها.

قال: فأجمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بني إسرائيل وكان ثقة في أنفسهم، فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده، فتكون في كنفه وجواره، إلى أن يرجعوا من غزاتهم، فأبى ذلك، وتعوذ بالله - عز وجل- منهم ومن أختهم، قال: فلم يزالوا به حتى أطاعهم، قال: أنزلوها في بيت حيال صومعتي، قال: فأنزلوها في ذلك البيت، ثم انطلقوا وتركوها، فمكثت في جوار ذلك العابد زمانًا ينزل إليها بالطعام من صومعته، فيضعه عند باب الصومعة، ثم يغلق بابه ويصعد إلى صومعته، ثم يأمرها: فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من طعام.

قال: فتلطف له الشيطان، فلم يزل يرغبه في الخير ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها، فلو مشيت بالطعام

حتى تضعه على باب بيتها كان أعظم لأجرك، قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها، ووضعه على باب بيتها، ولم يكلمها، قال: فلبث على هذه الحالة زمانًا.

ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير والأجر، وحضَّه عليه، وقال: لو كنت تمشي إليها بطعامها، حتى تضعه في بيتها كان أعظم لأجرك، قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام، ثم وضعه في بيتها، فلبث على ذلك زمانًا.

ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وحضه عليه، فقال: لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة، قال فلم يزل به حتى حدثها زمانًا يطلع إليها من فوق صومعته.

ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال: لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك، وتحدثها وتقعد هي على باب بيتها فتحدثها، كان آنس لها، فلم يزل به حتى أنزله، وأجلسه على باب صومعته، يحدثها وتحدثه، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها، فلبثا زمانًا يتحدثان.

ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والثواب فيما يصنع بها، وقال: لو خرجت من باب صومعتك، ثم جلست قريبًا من باب بيتها فحدثتها كان آنس لها، فلم يزل حتى فعل، قال فلبث زمانًا.

ثم جاءه إبليس- عليه لعنة الله- فرغبه في الخير وفيما له عند الله- سبحانه وتعالى- من حسن الثواب فيما يصنع بها، وقال له: لو دنوت منها وجلست عند باب بيتها فحدثتها، ولم تخرج من بيتها، ففعل، فكان ينزل من باب صومعته، فيقف على باب بيتها، فيحدثها، فلبث على ذلك حينًا.

ثم جاءه إبليس فقال: لو دخلت البيت معها فتحدثها، ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك، فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها

نهارها كله، فإذا مضى النهار صعد إلى صومعته.

ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبَّلها، فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه ويسول له حتى وقع عليها؛ فأحبلها، فولدت له غلامًا.

فجاءه إبليس فقال: أرأيت إن جاء إخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع؟ لا آمن أن تفتضح أو يفضحوك، فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها، ففعل، فقال: أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها؟ قال: فخذها واذبحها وادفنها مع ابنها، فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفرة مع ابنها وأطبق عليهما صخرة عظيمة وسوى عليهما وصعد إلى صومعته يتعبد فيها، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث حتى أقبل إخوتها من الغزو، فجاءوا فسألوا عنها، فنعاها لهم وترحم عليها وبكاها، وقال: كانت خير امرأة وهذا قبرها فانظروا إليه، فأتى إخوتها القبر فبكوا أختهم وترحموا عليها فأقاموا على قبرها أيامًا، ثم انصرفوا إلى أهليهم.

فلما جن عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم جاءهم الشيطان في النوم على صورة رجل مسافر، فبدأ بأكبرهم، فسأله عن أخته، فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها، وكيف أراهم موضع قبرها، فكذبه الشيطان، وقال: لم يصدقكم أمر أختكم، إنه قد أحبل أختكم وولدت له غلامًا فذبحه وذبحها معه فزعًا منكم، وألقاها في حفيرة احتفرها خلف باب البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله، فانطَلِقُوا فادخلوا البيت فإنكم ستجدونهما كما أخبرتكم هناك جميعًا.

وأتى الأوسط في منامه، فقال له مثل ذلك، وأتى أصغرهم، فقال له

مثل ذلك، فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم، فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم: لقد رأيت الليلة عجبًا، فأخبر بعضهم بعضًا بما رأى.

فقال كبيرهم: هذا حلم ليس بشيء فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم، قال أصغرهم: والله لا أمضى حتى آتي إلى هذا المكان فأنظر فيه، فانطلقوا جميعًا حتى أتوا البيت الذي كانت فيه أختهم، ففتحوا الباب، وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفيرة كما قيل لهم، فسألوا عنها العابد فصدَّق قول إبليس فيما صنع بهما.

فاستعدوا عليه ملكهم فأنزل من صومعته وقدم ليصلب، فلما أوثقوه على الخشبة، أتاه الشيطان، فقال له: قد علمت أني أنا صاحبك الذي فتنك بالمرأة حتى أحبلتها وذبحتها وابنها، فإن أنت أطعتني اليوم وكفرت بالله الذي خلقك وصورك خلصتك مما أنت فيه، قال: فكفر العابد بالله، فلما كفر بالله تعالى خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه[1]».

وعن أنس قال: «كان رجلٌ نصرانيًا فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبي ﷺ، فعاد نصرانيًا، فكان يقول: ما يدري محمدٌ إلا ما كتبت، فأماته الله فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض، قالوا: هذا فعلُ محمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له فأعمقوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعلُ محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه خارج القبر، فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس،

---

(١) وردت هذه القصة في معظم كتب التفسير عند قوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ [الحشر: ١٦].

فألقوه»(١) .

السبب الثاني:

فهو ضعف الإيمان في الأصل، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب، ومهما ضعف الإيمان، ضعف حب الله تعالى، وقوي حب الدنيا، فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب، ويقسو ويسوَد وتتراكم ظلمة النفوس على القلب، فلا يزال يطفئ ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعًا ودينًا، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب، أعني حب الله ضعفًا، لما يبدو من استشعار فراق الدنيا، وهي المحبوب الغالب على القلب، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا، ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت، وكراهة ذلك من حيث إنه من الله، فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب، كما أن الذي يحب ولده حبًا ضعيفًا إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده، وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضًا، فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة، فقد خُتِم له بالسوء، وهلك هلاكًا مؤبدًا، والسبب الذي يُفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها، وإن كان يحب الدنيا أيضًا فهو أبعد عن هذا الخطر وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وهو الداء العُضال، وقد عمّ أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى، إذ لا يحبه إلا من عرفه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٧) في كتاب المناقب، باب (٢٥) علامات النبوة والإسلام، الفتح (٦/ ٦٢٤) .

إن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] فإذن كل مَن فارقته روحه في حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله، وظهر بغض فعل الله بقلبه في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه؟ فيكون موته قدومًا على ما أبغضه وفراقًا لما أحبه، فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرًا، فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال، وأما الذي يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه، الذي تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار، طمعًا في لقائه، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلاً عما يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام.

* * *

٢- الخاتمة الثانية التي لا تقتضي الخلود في النار، لها أيضًا سببان:

أحدهما: كثرة المعاصي، وإن قوي الإيمان.

والآخر: ضعف الإيمان، وإن قلت المعاصي.

وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلف والعادة، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت؟ فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي، فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبًا عن الله تعالى، فالذي لا يفارق الذنب إلا الفينة بعد الفينة، فهو أبعد عن هذا الخطر، والذي لم يفارق ذنبًا أصلاً فهو بعيد جدًّا عن هذا الخطر، والذي غلبت عليه المعاصي، وكانت أكثر من طاعاته، وقلبه بها أفرح منه بالطاعات، فهذا الخطر عظيم وقريب في حقه جدًّا، ونعرف هذا بمثال:

وهو أنه لا يخفى عليك أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره، حتى إنه لا يرى إلا ما يماثل مشاهدته في اليقظة، وحتى إن المراهق الذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع «الجماع» إذا لم يكن قد واقع في اليقظة، ولو بقي كذلك مدة، لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع، ثمّ لا يخفى أن الذي قضى عمره في الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء، أكثر مما يراه الفاجر، الذي قضى عمره في التجارة، والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه؛ لأنه إنما يظهر في حال النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب، والموت شبيه النوم، ولكنه فوقه، ولكن سكرات الموت

وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم، فيقتضي ذلك تذكر المألوف وعوده إلى القلب، وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره في القلب طول الإلف، فطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضًا مرجح، وكذلك تخالف أيضًا منامات الصالحين منامات الفُسَّاق، فتكون غلبة الإلف سبب؛ لأن تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه، فربما تقبض عليها روحه، فيكون ذلك سبب سوء خاتمته، وإن كان أصل الإيمان باقيًا بحيث يُرجى له الخلاص منها، وكما أن ما يخطر في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى.

فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى نعرف بعضها، ولا نعرف بعضها، كما أنا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه، إما بالمشابهة، وإما بالمضادة، وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحسن منه.

- أما المشابهة: فبأن ينظر إلى جميل، فيتذكر جميلاً آخر.

- وإما بالمضادة: فبأن ينظر إلى جميل، فيتذكر قبيحًا ويتأمل في شدة التفاوت بينهما.

- وإمّا بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان، فيتذكر ذلك الإنسان، وقد ينتقل الخاطر من شيء إلى شيء ولا أدري وجه مناسبته له، وإنما يكون ذلك بواسطة وواسطتين، مثل أن ينتقل من شيء ثان، ومنه إلى شيء ثالث، ثم ينسى الثاني[1] .

تبيّن لك أن سوء الخاتمة على رتبتين:

هي على النحو التالى:

---

(١) إحياء علوم الدين بتصرف واختصار .

١ - أن يغلب على القلب الجحود أو الشك وهذه هي العظمى وهي إما

- (أ) البدع
- (ب) ضعف الإيمان ثم استيلاء حب الدنيا على القلب

يغلب حب الدنيا والتعلق بشهواتها

- (أ) كثرة المعاصي وإن قوي الإيمان
- (ب) ضعف الإيمان وإن قلّت المعاصي

* * *
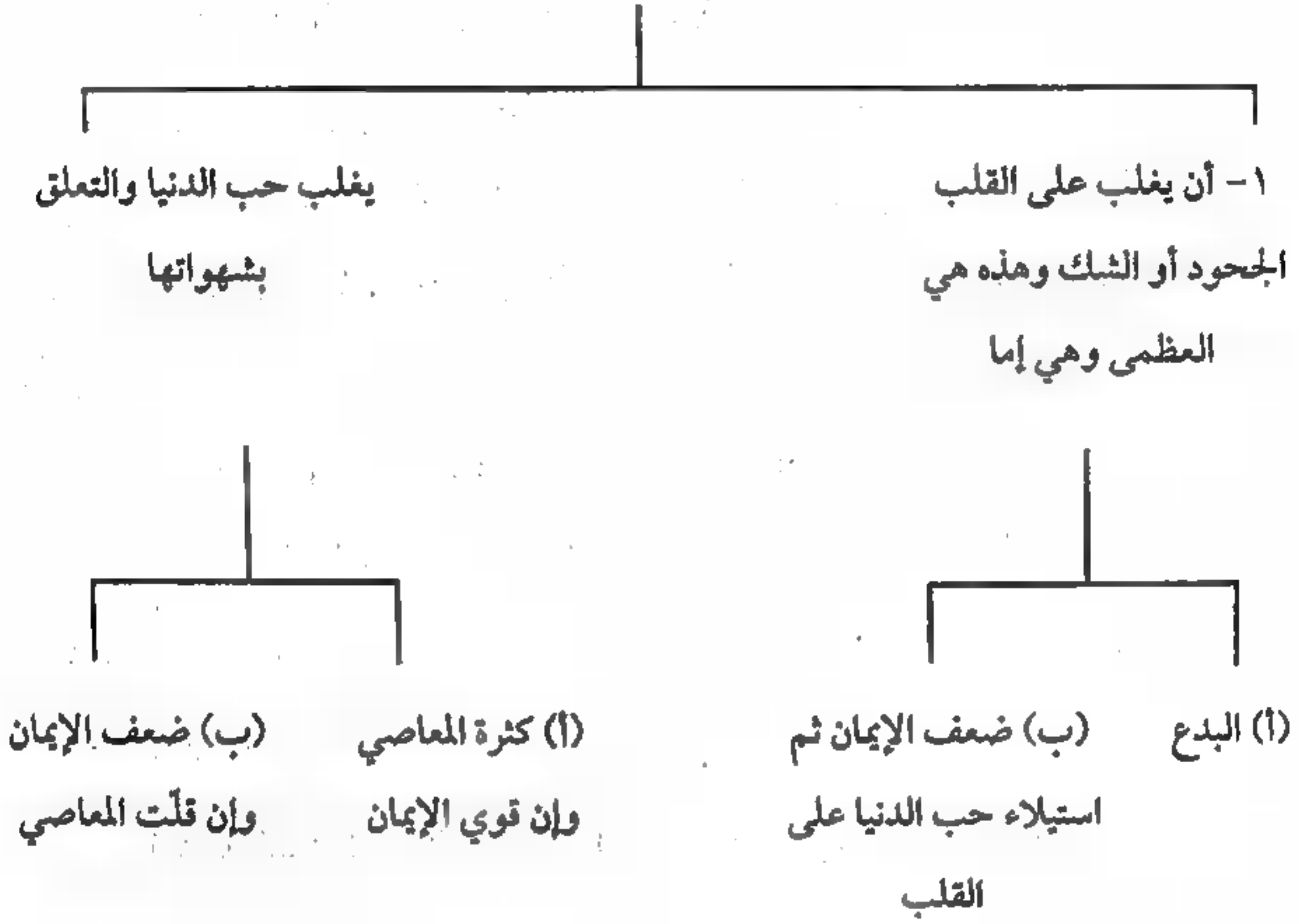
* ويمكن أن ترد أسباب سوء الخاتمة إلى أربعة أسباب هي:

١- الجحود والشك والنفاق.

٢- العُجب والأمن على الإيمان أن يُسلب.

٣- البدعة.

٤- حب الدنيا والمعاصي.

ويمكن أن تفصَّل هذه الأسباب شيئًا ما على النحو التالي:

١- الشرك بالله، وإن كان مسلمًا، وتوجيه أي لون من ألوان العبادة لغيره من نبي أو ولي.

٢- السحر (الذي يخالطه كفر كَسبٍ الله ورسوله).

٣- موالاة المشركين، ومظاهرتهم.

٤- الإعراض عن شرع الله لا يتعلمه ولا يعمل به.

٥- إنكار معلومة من الدين بالضرورة كإنكار الصلاة.

٦- عبادة الله شكًّا بعدم يقين.

٧- جحد شيء من أسماء الله وصفاته أو تشبيه الله بالمخلوقين.

٨- سب الرسول ﷺ والرب سبحانه .

٩- الاستهزاء بالله وملائكته وكتبه ورسله.

١٠- مَن جعل بينه وبين الله وسائط يعبدهم ويدعوهم.

١١- الاعتقاد أن غير شرع الرسول ﷺ أكمل من شرعه أو هديه أفضل من هدي الرسول ﷺ.

١٢- استحلال ما حرّم الله أو تحريم ما أحلّ الله.

١٣- إنكار السنة النبوية.

١٤- الحكم بغير ما أنزل الله، أو الرضا بحكم غيره، وإن لم يحكم به.

١٥- الاعتقاد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ.

١٦- اعتقاد أن الشريعة الإسلامية غير ناسخة لليهودية والنصرانية.

١٧- عدم الإيمان بالرسل أو بواحد منهم، أو بالكتب أو بواحد منها، أو بالملائكة أو بواحد منهم، ورد النص الصحيح به، أو عدم الإيمان باليوم الآخر أو بما يحدث فيه أو عدم الإيمان بالقضاء والقدر.

١٨- سب الصحابة جميعًا.

١٩- النفاق.

٢٠- كره الله أو ملائكته أو أنبيائه أو كتابه أو آية من كتابه وما مر كله كفر أكبر.

٢١- قتل النفس.

٢٢- البدعة ومنها ما هو كفر وكبائر وصغائر.

٢٣- ترك الصلاة.

٢٤- منع الزكاة.

٢٥- عقوق الوالدين.

٢٦- أكل الربا.

٢٧- أكل مال اليتيم

٢٨- الكذب متعمدًا على النبي ﷺ.

٢٩- إفطار رمضان بلا عُذر ولا رُخصة.

٣٠- الفرار من الزحف.

٣١- الزنا.

٣٢- شرب الخمر وإن لم يسكر منه.

٣٣- الكبر والفخر والخيلاء والعجب.

٣٤- شهادة الزور.

٣٥- اللواط.

٣٦- قذف المحصنات.

٣٧- الغلول (السرقة) من الغنيمة ومن بيت المال والزكاة.

٣٨- الظلم بأخذ أموال الناس بالباطل.

٣٩- السرقة.

٤٠- قطع الطريق.

٤١- اليمين الغموس.

٤٢- الكذاب في غالب أقواله.

٤٣- الحاكم الغاش لرعيته الظالم الجبار.

٤٤- قاتل نفسه وهي من أعظم الكبائر.

٤٥- القاضي الذي لا يحكم بالحق.

٤٦- الديوث الذي يُقر الفحش في أهله.

٤٧- الرَّجِلة من النساء والمخنَّث من الرجال.

٤٨- المُحَلِّل والمحلَّل له.

٤٩- أكل الميتة والدم ولحم الخنزير.

٥٠- عدم التنزه من البول، وهو شعار النصارى.

٥١- المكّاس: جباية المال ظلمًا.

٥٢- الرياء.

٥٣- الخيانة.

٥٤- التعلم للدنيا، وكتمان العلم.

٥٥- المنّان: أي الذي يمنُّ على الناس بالعطاء.

٥٦- المكذب بالقدر.

٥٧- المتسمع على الناس ما يسرونه.

٥٨- اللعان.

٥٩- الغادر بأميره، وغير ذلك.

٦٠- تصديق الكاهن أو المنجِّم.

٦١- نشوز المرأة.

٦٢- قطع الرحم.

٦٣- المصور في الثياب والحيطان.

٦٤- النَّمام.

٦٥- النياحة واللطم والندب.

٦٦-الطعن في الأنساب.

٦٧- البغي.

٦٨- الخروج بالسيف، والتكفير بالكبائر.

٦٩- أذية المسلمين وشتمهم.

٧٠- أذية أولياء الله ومعاداتهم.

٧١- مَن غيّر منار الأرض، أي: حدودها.

٧٢- من سب أكابر الصحابة.

٧٣- الواصلة في شعرها والمتفلجة والواشمة.

٧٤- من أشار إلى أخيه بحديدة.

٧٥- من ادّعى إلى غير أبيه، كأن يقول: فلان والدي.

٧٦- الجدال والمراء واللدد.

٧٧- الشرب في الذهب والفضة.

٧٨- المطفف في وزنه وكيله.

٧٩- منع فضل الماء.

٨٠- القمار.

٨١- تارك الجمعة ليصلي وحده.

٨٢- الإلحاد في الحرم.

٨٣- مَن وسم دابة في الوجه.

٨٤- مَن جس على المسلمين ودلّ على عوراتهم.

٨٥- الطيِّرة.

٨٦- الذبح لغير الله.

٨٧- الأمن من مكر الله.

٨٨- الإياس من روح الله.

٨٩- إسبال الإزار تعززاً وخيلاء.

٩٠- لباس الحرير والذهب للرجل.

٩١- مَن خصى عبده، أو جدعه، أو عذَّبه ظلمًا وبغيًا[1]. وكذا مَن صنع هذا بأي مسلم.

* * *

(١) كتاب الكبائر للإمام الذهبي، وللإمام ابن القيم، وللإمام محمد بن عبد الوهاب.

وإليك نماذج لسوء الخاتمة

قال الربيع بن سبرة بن معبد الجُهني، وكان عابداً بالبصرة: أدركت الناس بالشام، وقيل لرجل: يا فلان قل: لا إله إلا الله، قال: اشرب واسقني.

وقيل لرجل بالأهواز: يا فلان: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: ده يازده، دوازده، تفسيره: عشرة، أحد عشر، اثنا عشر، كان هذا الرجل من أهل العمل والديوان، فغلب عليه الحساب والميزان.

لقد حكي أن بعض السماسرة جاء عنده الموت، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: ثلاثة ونصف، أربعة ونصف، غلبت عليه السمسرة.

ولقد رأى أحد الأئمة بعض الحُسَّاب وهو في غاية المرض، يعقد بأصابعه ويحسب.

وقيل لآخر: قل لا إله إلا الله فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والجنان الفلاني اعملوا فيها كذا.

وقيل لآخر: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: البقرة الصفراء، غلب عليه حبها والاشتغال بها.

ومن هذا من أحبَّ راقصة أو مغنية أو ممثِّلاً، فإنه قد يغلب عليه حبه حتى يموت من أجله، أو يموت وهو يفكر فيه.

حكى ابن ظفر في كتاب النصائح له قال: كان يونس بن عبيد- رحمه الله- بزازاً، وكان لا يبيع في طرفي النهار ولا في يوم غيم، فأخذ يوماً ميزانه فرضَّه (كسره) بين حجرين، فقيل له: هلا أعطيته الصانع فأصلح

فساده؟ فقال: لو علمت فيه فساداً لما أبقيت من مالى قوت ليلة، قيل له: فلِمَ كسرته؟ قال: حضرت الساعة رجلاً احتضر فقلت له: قل لا إله إلا الله فامتعض، فألححت عليه فقال: ادع الله لي، فقال: هذا لسان الميزان على لساني يمنعنى من قولها. قلت: أفما يمنعك إلا من قولها؟ فقال: نعم. قلت: وما كان عملك به؟ قال: ما أخذت ولا أعطيت به إلا حقًّا في علمي، غير أنى كنت أقيم المدة لا أفتقده، ولا أختبره.

فكان يونس بعد ذلك يشترط على مَن يبايعهُ أن يأتي بميزان ويزن بيده وإلا لم يبايعه.

* * *

خاتمة صاحب حمام منجاب

قال الربيع: وقيل لرجل ها هنا بالبصرة يا فلان قل لا إله إلا الله، فجعل يقول:

يارب قائلة يومًا وقد لعبت أين الطريق إلى حمام منجاب؟

فما قصة هذا الرجل يا مُخنث العزم؟

كان رجلٌ واقفًا بإزاء داره، وكان بابه يشبه باب حمام فمرت به جارية لها منظر وهي تقول: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال لها: هذا حمام منجاب.

وأشار إلى داره فدخلت الدار، ودخل وراءها، فلما رأت نفسها معه في داره، وليس بحمام، علمت أنه خدعها فأظهرت له البِشر والفرح باجتماعها معه على تلك الخلوة، وفي تلك الدار، وقالت له: يصلح معنا ما نطيب به عيشنا وتقر به أعيننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وبكل ما تشتهين، فخرج وتركها في الدار ولم يقفلها، وتركها محلولة على حالها ومضى، فأخذ ما يصلح لهما ورجع، ودخل الدار فوجدها قد خرجت وذهبت ولم يجد لها أثرًا، فهام الرجل بها وأكثر الذكر لها والجزع عليها وجعل يمشي في الطرق والأزِقَّة وهو يقول:

يارب قائلة يومًا وقد لعبت أين الطريق إلى حمام منجاب؟

وإذا بجارية تجاريه من طاق، وهي تقول:

هلاَّ جعلت لها لما ظفرت بها حِرزًا على الدار أو قفلاً على الباب

فزاد هيمانه واشتد هيجانه، ولم يزل كذلك حتى نزل به الموت فقيل له:

قل: لا إله إلا الله، فقال:

يارب قائلة يومًا وقد لعبت أين الطريق إلى حمام منجاب؟

* * *

خاتمة سيئة

يروى أنه كان بمصر رجل ملتزم مسجداً للأذان والصلاة، وعليه بهاء وأنوار الطاعة، فرقي يومًا المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني ذمي، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار، فافتتن بها وترك الأذان، ونزل إليها ودخل الدار، فقالت له: ما شأنك؟ ما تريد؟ فقال: أنت أُريد. قالت: لماذا؟ قال لها: قد سلبتِ لُبي[1] وأخذت بمجامع قلبي. قالت: لا أجيبك إلى ريبة. قال لها: أتزوجك.

قالت له: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك. قال لها: أتنصرَّ.

قالت له: إن فعلت أفعل فتنصر ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلمّا كان في أثناء ذلك اليوم، رقي إلى السطح كان في الدار فسقط منه فمات، فلا هو بدينه، ولا هو بها[2].

* * *

ويروى أن رجلاً علق بشخص وأحبه، فتمنَّع عنه واشتد نقاره فاشتد كلف البائس إلى أن لزم الفراش، فلم تزل الوسائط تمشي بينهما حتى وعد بأن يعود، فأخبر بذلك ففرح واشتد فرحه وسروره، وانجلى عنه بعض ما

---

(١) اللب: القلب.

(٢) التذكرة للقرطبي.

كان يجده، فلما كان في بعض الطريق رجع، وقال: لا أدخل مداخل الريب، ولا أعرض نفسي لمواقع التهم، فأخبر بذلك البائس المسكين، فسُقِط في يده، ورجع إلى أسوأ ما كان به، وبدت علامات الموت وأماراته عليه.

قال الراوي: فسمعته يقول وهو في تلك الحال:

سلام يا راحة العليل وبرد ذل الدَّنف النحيلِ
رضاك أشهى إلى فؤادي من رحمة الخالق الجليل

قال: فقلت له: يا فلان اتق الله تعالى، فقال: قد كان ما كان فقمت عنه، فما جاوزت باب داره، حتى سمعت صيحة الموت قد قامت عليه[1].

* * *

وقال أبو بكر بن عبد الله المزني: جمع رجل من بني إسرائيل مالاً، فلما أشرف على الموت قال لبنيه: أرني أصناف أموالي؟ فأتي بشيء كثير من الخيل والإبل والرقيق وغيره، فلمّا نظر إليه بكى تحسراً عليه، فرآه ملك الموت وهو يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ فو الذي خولّك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرِّق بين روحك وبدنك؟ قال: فالمهلة حتى أفرِّقه قال: هيهات انقطعت عنك المهلة! فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك؟ فقبض روحه.

* * *

وروي أن رجلاً جمع مالاً فأوعى ولم يدع صنفًا من المال إلا اتخذه، وابتنى قصراً، وجعل عليه بابين وثيقين، وجمع عليه حرسًا من غلمانه، ثمّ جمع أهله، وصنع لهم طعامًا، وقعد على سريره، ورفع إحدى رجليه على الأخرى، وهم يأكلون، فلمّا فرغوا، قال: يا نفس انعمي السنين فقد جمع

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم.

لك ما يكفيك؟ فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب، وفي عنقه مخلاة، يتشبه بالمساكين، فقرع الباب بشدة عظيمة قرعًا أفزعه وهو على فراشه، فوثب إليه الغلمان، وقالوا: ما شأنك؟ فقال: ادعوا إليّ مولاكم، قالوا: وإلى مثلك يخرج مولانا؟! قال: نعم، فأخبروه بذلك، فقال: هلا فعلتم به وفعلتم، فقرع الباب قرعة أشد من الأولى، فوثب إليه الحرس فقال: أخبروه أني ملك الموت، فلمّا سمعوه ألقي عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والتخشع، فقال (الملك): قولوا له قولاً لينًا، وقولوا هل تأخذ به أحدًا.

فدخل عليه، وقال: اصنع في مالك ما أنت صانع، فإني لست بخارج منها حتى أُخرّج روحك، فأمر بماله حتى وضع بين يديه، فقال حين رآه: لعنك الله من مال! أنت شغلتني عن عبادة ربي، ومنعتني أن أتخلى لربي، فأنطق الله المال، فقال: لِمَ تسبني وقد كنت تدخل على السلاطين بي، ويُرد المتقي عن بابهم، وكنت تنكح المتنعمات بي، وتجلس مجالس الملوك بي، وتنفقني في سبيل الشر، فلا أمتنع منك، ولو أنفقتني في سبيل الخير نفعتك؟

خُلقت يا ابن آدم من تراب، فمنطلق ببر، ومنطلق بإثم، ثمّ قبض ملك الموت روحه فسقط[١].

* * *

---

(١) الإحياء (٤/٤٩٦، ٤٩٧).

وقال يزيد الرقاشي: بينما جبار من الجبابرة من بني إسرائيل جالس في منزله قد خلا ببعض أهله إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته، فثار إليه فزعًا مغضبًا، فقال له: مَن أنت ومَن أدخلك داري؟ فقال: أما الذي أدخلني الدار فربها، وأما أنا فالذي لا يمنع مني الحُجّاب، ولا أستأذن على الملوك، ولا أخاف صولة المتسلطين، ولا يمتنع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مريد؟ قال: فسَقط في يد الجبار، وارتعد حتى سقط منكبًا على وجهه، ثمّ رفع إليه مستجديًا متذللاً له، فقال له: أنت إذن ملك الموت! قال: أنا هو، قال: فهل أنت مُمهل حتى أحدث عهدًا؟ قال: هيهات انقطعت مدتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل، قال: فأين تذهب بي؟ قال: إلى عملك الذي قدّمته، وإلى بيتك الذي مهدته، قال: فإني لم أقدم عملاً صالحًا، ولم أمهد بيتًا حسنًا، قال: فإلى لظى، نزاعة للشوى، ثمّ قبض روحه فسقط ميتًا بين أهله، فمن بين صارخ وباكٍ[1].

* * *

حضرت الوفاة شخصًا كان مع زملائه ساهرًا في الشهوات، مستغرقًا في شرب الخمور، مغرمًا بالنساء فقال له رجل وهو في النزع الأخير: قل: لا إله إلا الله. فقال: يلعن دينك ودين أبيك. هكذا مات وهو يلعن الدين.

* * *

وحضرت الوفاة رجلاً كان بالمستشفى فاسودّ وجهه، ثمّ ازداد سوادًا، حتى صار وجهه مسودًّا كالقار[2]. وهذا لمعصيته للملك الجبار.

ولمّا حضرت الوفاة رجلاً يلعب مع زملائه يشرب الخمور، ويرقص مع

---

(١) الإحياء (٤/٤٩٧).

(٢) الزفت.

النساء فبـينما هو في مرحه ولعـبه وسعادته نزل به ملك الموت ومـعه أعوانه فسـقط هذا الغافل علـى الأرض، وتغيّر لونـه، وعلم أصحابه أنـه ميت لا محـالة فقـال له أحدهم: يا أخي قل: لا إلـه إلا الله. فقال: أعطـني كأس خمر وتعالي يا فلانة.

* * *

آثار سوء الخاتمة

توهم نفسك وقد خرجت من الدنيا على معصية، فخُتِم لك بخاتمة سيئة، فإذا بوجهك قد اسودَّ، وإذا بأهلك قد اغتموا، وإذا بروحك قد تلقاها ملكان فيقولان: اخرجي إلى سخط من الله وعذاب ورب غير راض غضبان، ثمّ يرفعانها إلى السماء، فلا تفتح لها أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط.

«إن العبد الكافر، أو الفاجر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثمّ يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح.

ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له ثمّ قرأ رسول الله ﷺ ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤١]، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحًا ثمّ قرأ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه. فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان: ما

دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادي منادٍ من السماء أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه «تُكسر فيه أضلاعه» ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبْشِر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: مَن أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة»[1].

نعم:

حتى إلى القبر الذي جهزوا	وضعوك عند شفيره بحنانِ
ودنا الأقارب يرفعونك بينهم	للحد كي تُمسي مع الديدانِ
وسكنت لحدًا قد يضيق لضيقه	صدر الحليم وصابر الحيوانِ
وسمعت قرع نعالهم من بعد ما	وضعوك في البيت الصغير الثاني
فيه الظلام كذا السكوت مخيم	والروح وجاءك الملكانِ
وهنا الحقيقة والمُحقق قد أتى	هذا مقام النصر والخُذلانِ
أما إذا كنت فيها مُجرمًا	متتبعًا لطرائق الشيطانِ
ثكلتك أمك كيف تحتمل الأذى	أم كيف تصبر في لظى النيرانِ
فإن تفرق عنك صحبك وانثنى	حُمَّال نعشك جاءك الملكانِ
جاءاك مرهوبين من عينيهما	ترمى بأشواظ سم النيرانِ
سألاك عن ربك قدير خالق	وعن الذي قد جاءك بالقرآنِ
فتقول: لا أدري وكنت مصدقًا	أقوال شبه مقالة الثقلانِ
فيوبخانك بالكلام بشدة	وسيضربانك ضربة السَّجَانِ

---

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وابن جرير وغيرهم، والحديث في صحيح الجامع .

فتصيح صيحة آسف مستوجع ... ويجي الشجاع وذاك هول ثانِ
وتقول: يا ويلا ما لي رجعة ... حتى أحال بساحة الإيمانِ
لو عُدت إلى الدنيا لعدت لما مضى ... في جانب التكذيب والعصيانِ

وتظل في هذا العذاب إلى يوم يبعثون.

آه إنه عذاب ما بعده عذاب يضيق عليك القبر حتى تتحطم فيه أضلاعك، ويضربك الملك ضربة لو ضرب بها جبال الدنيا -لأبادها، ثمّ تخرج من قبرك يوم القيامة حافيًا عُريانًا على الصورة التي خرجت عليها من الدنيا، فالمرء يبعث على ما مات عليه تخرج بهذه الصورة القبيحة ومعك عملك السيئ، ومعك قرينك الذي أضلك في هذه الحياة الدنيا، ويأتيك ملكان سائق وشهيد، سائق يسوقك إلى أرض المحشر، وشهيد يشهد عليك، وتحشر على وجهك، والذي أمشاك على رجليك في الدنيا، قادر على أن يمشيك على وجهك يوم القيامة، وأنت خارج من قبرك يا مسكين، على عملك الذي مت عليه. فإن مت آكلاً للربا خرجت من قبرك كالمصروع الذي يتخبطه الشيطان من المس.

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وإن مت وأنت متكبر جبار خرجت من قبرك وأنت مثل الذّر. وإن مت وأنت معرض عن شرع الله خرجت أعمى تقول: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٥، ١٢٦].

وإن كنت أميراً ظالمًا لرعيتك جئت مغلولاً إلى عنقك لا يفكك إلا العدل وأنّى العدل منك؟ هيهات .. هيهات.

وإن كنت مانعًا للزكاة جئت مطوقًا بالمال الذي بخلت به على الفقراء، وهنا الخطب العظيم لحقك ثعبان عظيم لونه مخيف، أقدره العلام على النطق والكلام، آه! يقول لك: هلمَّ إليَّ .. أقبل عليّ .. لا تلتفت إليه يعيد الكلام، لا تعبأ به، يردد الكلام، لا تنظر إليه، وأخيراً لا تجد بُدًّا إلا أن تمد يدك إليه، فينهشها نهشًا، وأما إن كنت سارقًا من أموال المسلمين غاشًا لهم تجيء يوم الحسرة والندامة بما أخذت ونهبت، فإن أخذت مالاً جئت حاملاً له، وإن سرقت ذهبًا جئت حاملاً إياه، وهكذا توهم نفسك في هذه الأهوال وأنت على هذه الحالة السيئة، ساقتك الملائكة بالتنكيل والتعنيف إلى أرض المحشر، أرض بيضاء عفراء، ليس فيها علامة لأحد كل الخلائق يسيرون إليها المتقون مع المتقين والعصاة مع العصاة، وكل حبيب مع حبيبه[1]، هنا دنت الشمس من الرءوس، فكانت منهم كمقدار ميل، لو أن أحدهم رفع يده إليها لنالها.

ونزل العرق على الناس حسب أعمالهم، فمنهم مَن وصل العرق إلى قدميه، ومنهم مَن وصل العرق إلى ركبتيه، ومنهم من وصل العرق إلى صدره، ومنهم مَن وصل العرق إلى أعلاه، ومنهم مَن ألجمه العرق إلجامًا.

نزل الجبار جل جلاله نزولاً يليق بجلاله أحاطت الملائكة بأرض المحشر.

عبد الله، نودي عليك باسمك لتعرض على القهار لا تشتبه الأسماء باسمك، ولا اسم أبيك، إذا نودي عليك علمت أنك المطلوب لا محالة قرع النداء ارتعدت فرائصك، أخذت كتابك بالشمال كتاب أسود مكتوب بالظلام فلان بن فلان شقي شقاء ما بعده شقاء. تقول: ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾

---

(١) كل هذا ثابت في الأحاديث الصحيحة .

[الحاقة: ٢٥- ٢٩] حوسبت حسابًا شديدًا، سُئلت عن الصغير والكبير والنقير والقطمير، وزنت أعمالك فإذا بها ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩].

نصب حوض النبي محمد ﷺ، وقد جئت لتشرب وأنت في عطش شديد، فلم يسقك أحد، بل أخذتك الملائكة إلى الوراء، ونصب الصراط فزلت قدمك، وسقطت في النار وبئس القرار.

وينزل دارًا لا أنيس له بها ... وإن طال عمره فلابد عنها راغمًا سوف ينقلُ
ويبقى رهينًا بالتراب بما جنى ... إلى بعثه من أرضه حين يَنْسِلُ
يُهال بأهوال يشيب ببعضها ... ولا هول إلا بعده الهول أهولُ
وفي البعث بعد الموت نشر صحائف ... وميزان قسط طائش أو مثقلُ
وحشر يشيب الطفل منه لهوله ... ومنه الجبال الراسيات تزلزلُ
ونار تلظى في لظاها سلاسل ... يُغلُّ بها الفجار ثم يُسلسلُ
شراب ذوي الإجرام فيها حميمها ... وزقومها مطعومهم حين يؤكلُ
حميم وغساق وآخر مثله ... من المُهل يغلي في البطون ويشعلُ
يزيد هوانًا من هواها ولا يزل ... إلى قعرها يهوى دوامًا وينزلُ
وفي ناره يبقى دوامًا معذبًا ... يصيح ثبورًا ويحه يتولولُ
عليها صراط مَدحض ومَزلةٌ ... عليه البرايا في الخلائق تحملُ
وفيه كلاليب تُعلق بالورى ... فهذا نجا منها وهذا مخردلُ
فلا مُذنب يفديه ما يفتدي به ... وإن يعتذر يومًا فلا العُذرِ يُقبلُ
فهذا جزاء المجرمين على الردى ... وهذا الذي يوم القيامة يحصلُ
أعوذ بربي من لظى وعذابها ... ومن حال من يهوى بها يتجلجلُ
ومن حال مَن في زمهرير مُعذَّب ... ومن كان في الأغلال فيها مُكبلُ

* * *

كيفية النجاة من سوء الخاتمة

إذا بان لك معنى سوء الخاتمة، وما هو مُخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها، فواظب على ذكر الله تعالى، وأخرج من قلبك حب الدنيا، واحرس من فعل المعاصي جوارحك، وعن الفكر فيها قلبك، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهدك، فإن ذلك أيضًا يؤثر في قلبك، ويصرف إليه فكرك وخواطرك، وإيّاك أن تسوِّف وتقول: سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة، فإن كل نَفَسٍ من أنفاسك خاتمتك، إذ يمكن أن تختطف فيه روحك، فراقب قلبك في كل تطريفة، وإياك أن تهمله لحظة، فلعل تلك اللحظة خاتمتك، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك، هذا ما دمت في يقظتك، وأمّا إذا نمت، فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن، وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك، لست أقول على لسانك فإن حركة اللسان بمجردها ضعيفة الأثر.

واعلم قطعًا أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالبًا عليه، وأن لا يغلب في النوم إلا ما كان غالبًا قبل النوم، ولا ينبعث عن نومك، إلا ما غلب على قلبك في نومك، والموت والبعث شبيه النوم واليقظة، فكما لا ينام العبد إلا ما غلب عليه في يقظته، ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه، فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه، ولا يحشر إلا على ما مات عليه، وتحقق قطعًا ويقينًا أن الموت والبعث حالتان من أحوالك، كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك، وآمن بهذا تصديقًا باعتقاد القلب، إن لم تكن أهلاً لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة، وراقب أنفاسك ولحظاتك، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين،

فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف إذا لم تفعل.

والناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعلماء كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك، وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول، والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك، فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك، إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه، فهما ضرورتان في الجبلة، وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك، فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك.

واعلم أنه إذا كان همتك ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك، وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوي على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك، فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور:

- من مأكولك في وقته - وقدره - وجنسه.

* أما الوقت: فأقله أن يكتفي في اليوم والليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم.

- وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن.

- وأمّا جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقنع بما ينفق، فإن قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مؤونة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشهوات وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله، فإن الحلال يعزُّ ولا يفي بجميع الشهوات.

* وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة، فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الطعام والشبهة، وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك ؛ فكل ما حصل مقصور اللباس إن لم تكتف به في خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده، بل كنت ممن لا يملأ بطنه إلا التراب، وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفًا والأرض مستقرًا، فإن غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد، فإن طلبت مسكنًا خاصًا طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك، وعمرك هو بضاعتك، ثمّ إن تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلاً بينك وبين الأبصار، ومن السقف سوى كونه دافعًا للأمطار، فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورطت في مهواة يبعد رقيك منها، وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرت عليها تفرغت لله وقدرت على التزود لآخرتك والاستعداد لخاتمتك، وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأماني تشعبت همومك ولم يبال الله في أي واد أهلكك، فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى النصيحة منك.

واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير، فإذا دفعته يومًا بيوم في تسويفك أو غفلتك، اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك، ولم تفارقك حسرتك وندامتك، فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذا لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك، فإنه سنورد عليك بعض صور سوء الخاتمة؛ علّك تعود إلى الرب المعبود- كما تقدم.

فإن قيل: هل يعلم المؤمن حُسن خاتمته وينال بعدها الرضوان عند

الموت، كما يعلم الكافر والفاجر سوء خاتمته وينال بعدها العذاب؟ قلت: نعم. وقد دلت النصوص الكثيرة من مفهوم آيات القرآن الكريم وصريح الآثار والأحاديث على ذلك.

أخرج الشيخان عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: «مَن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». فقالت عائشة: -أو بعض أزواجه- إنا لنكره الموت فقال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحبَّ الله لقاءه، وإنّ الكافر إذا حُضر بُشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه كرِه لقاء الله وكره الله لقاءه»(١).

- أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٣]، قال «لا يخرج الكافر من دار الدنيا حتى يشرب كأسًا من حميم»(٢).

- وأخرج ابن المبارك والبيهقي في الشعب عن محمد بن كعب القرظي قال: «إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال: السلام عليك يا وليَّ الله إنّ الله يقرأ عليك السلام، ثمّ نزع بهذه الآية: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل: ٣٢](٣).

---

(١) رواه البخاري ومسلم ومالك والترمذي والنسائي وابن ماجه والطيالسي والبغوي وابن حبان والدارقطني وعلي بن الجعد في الجعديات، وعبد الرزاق في المصنف (٦٧٤٨، ٦٧٤٩)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ١٤، ٤٦٩).

(٢) شرح الصدور (ص١١٩)، والدر المنثور (٦/ ١٦٧)، نقلاً عن المرسخ في أحوال البرزخ لمحمد بن طولون الصالحي (٩٥٣هـ) تحقيق: أبي عبد الرحمن الأثري، ط: دار الصحابة طنطا.

(٣) شرح الصدور (ص١١٦) معزو لهما، ولأبي الشيخ في العظمة، وابن منده في كتابه الأحوال، واستنقعت: أي استفاقت. وإسناده حسن.

وأخرج البيهقي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] قال: «ذلك عند الموت»(١).

وماذا لولي الله بعد حسن الخاتمة؟!

وعن علي بن أبي طالب قال: « حرام على كل نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم أين مصيرها» (٢).

وعن ابن مسعود قال: «إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام»(٣).

وقد قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩] يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، قال الله مكذبًا في قيلهم ذلك: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، أي بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها.

---

(١) صحيح: رواه ابن جرير (٤/ ٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣١١).

(٢) رواه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق (٣/ ٥٨٧-٦٧٥)، وابن أبي الدنيا.

(٣) شرح الصدور (١١٥)، والدر المنثور (٥/ ٢٠٦).

ثمّ قال في تفسير قوله تعالى في حق المؤمنين ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] ثمّ أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون أي مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة(١).

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

* * *

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٣٢٨، ٣٢٩)، وحكى الفخر إجماع المفسرين على هذا التفسير، وراجع إن شئت: تفسير الطبري والقرطبي والنيسابوري والسيوطي في (الدر)، والرازي والنسفي والثعالبي والخازن وأبي السعود عند هذه الآية.

عذاب القبر ونعيمه

وماذا بعد الخاتمة؟

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ مستقبل القبلة، وجلسنا حوله وكأنه على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت في الأرض، فجعل ينظر إلى السماء، وينظر إلى الأرض، وجعل يرفع بصره ويخفيه -ثلاثًا- فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» -مرتين أو ثلاثًا- ثم قال: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر» -ثلاثًا-.

ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط [1] من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت -عليه السلام- حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة».

وفي رواية: «المطمئنة» «اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان»، قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيّ السقاء، فيأخذها».

وفي رواية: «حتى إذا خرجت روحه، صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج بروحه من قبلهم، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، فذلك قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] «ويخرج منها كأطيب نفحة مسك

---

(١) حنوط: رائحة طيبة.

وجدت على وجه الأرض».

قال: «فيصعدون بها فلا يمرون يعني: بها على ملأ من الملائكة -إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان- بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا -حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين» ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٩ - ٢١] «فيكتب كتابه في عليين، ثم يقال: أعيدوه إلى الأرض، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى قال: فيرد إلى الأرض وتعاد روحه في جسده».

قال: «فإنه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه مدبرين، فيأتيه ملكان شديدا الانتهار، فينتهرانه، ويجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام فيقولان له: من نبيك؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ فيقول له: وما علمك بهذا؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت، فينتهره فيقول: من ربك؟ وما دينك؟ من نبيك؟، وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، فذلك حين يقول الله -عز وجل- ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. فيقول: «ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة».

قال: «ويأتيه». وفي رواية: «يمثل له رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، أبشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم مقيم، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: وأنت فبشرك الله بخير. من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فوالله ما علمتك إلا

كنت سريعًا في طاعة الله، بطيئًا في معصية الله، فجزاك الله خيرًا، ثم يفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا منزلك لو عصيت الله أبدلك به هذا. فإذا رأى ما في الجنة قال: رَبِّ عجل قيام الساعة، كيما أرجع إلى أهلي ومالي، فيقال له اسكن».

قال: «وإن العبد الكافر (وفي رواية: الفاجر) إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة غلاظ شداد سود الوجوه، معهم المسوح[1] من النار، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول، فتنقطع معها العروق والعصب، فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض، وتغلق أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحه من قبلهم، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان -بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا- حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح له».

ثم قال رسول الله ﷺ: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ[2]﴾ [الأعراف: ٤٠]، «فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، ثم يُقال: أعيدوا عبدي إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فتطرح روحه من السماء طرحًا حتى

---

(١) المسوح: جمع المسح وهو كساء غليظ من صوف أو شعر.
(٢) أي ثقب إبرة .

تقع في جسده، ثم قرأ: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. «فتعاد روحه في جسده».

قال: «فإنه ليسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه، ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري!، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه. لا أدري!، فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه، فيقال: محمد. فيقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون ذاك، قال: فيقال: لا دريت ولا تلوت، فينادي مناد من السماء: كذب، فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه».

وفي رواية: «ويُمثَّل له رجل قبيح الوجه قبيح الثياب، مُنْتِن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: وأنت فبشرك الله بالشر من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فوالله ما علمتك إلا كنت بطيئًا عن طاعة الله، سريعًا إلى معصية الله، فجزاك الله شرًا، ثم يقيض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان ترابًا، فيضربه ضربة حتى يصير بها ترابًا، ثم يعيده الله كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين، ثم يفتح له باب من النار، ويمهد له فراش من النار»[1].

وقد اتفق أهل السنة على أن عذاب القبر حق، وهو مقتضى السنة الصحيحة.

قال المروزي: قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: عذاب القبر حق لا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٦)، وأبو داود رقم (٤٧٥٣)، والحاكم (١/٣٧-٤٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي.

ينكره إلا ضال أو مضل، وقال حنبل: قلت لأبي عبد الله في عذاب القبر!، فقـال: هذه أحاديث صحاح نؤمن بهـا ونقر بها، كلمـا جاء عن النبي ﷺ إسناد جيـد أقررنا به، إذ لم نقـر بما جاء به رسـول الله ﷺ ودفعناه وردناه رددنا على الله أمره، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]. قلت له: وعذاب القبر حق؟ قال: حق، يعذبون في القبور.

قال: وسمعت أبا عبد الله يقـول: نؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير وأن العبد يسـأل في قبره ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] في القبـر. وقال أحمـد بن القاسم: قلت: يا أبا عـبد الله: نقر بمنكر ونكير وبما يروى من عذاب القبـر؟، فقال: سبحان الله! نعم نقر بذلك ونقول به .

* * *

عذاب القبر هو عذاب البرزخ

قال ابن القيم: ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه.

* * *

أسباب عذاب القبر

عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعني مما يكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحد منكم من رؤيا؟» قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وإنه قال لنا ذات غداة [١] : «إنه أتاني الليلة آتيان وإنهما ابتعثاني وإنهما قالا لي: انطلق. وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه[٢] فيتدهده [٣] الحجر ههنا، فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل به المرة الأولى. قال: قلت لهما: سبحان الله! ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق، قال: فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكلوب [٤] من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر[٥] شدقه[٦] إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ثم

(١) غداة: صباح.
(٢) يشدخ ويكسر.
(٣) يتدحرج.
(٤) الكلوب: حديدة مُعوجَّة.
(٥) فيشرشر: أي يقطعهُ شقًّا.
(٦) الشدق: جانب الفم.

يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى».

قال: «قلت: سبحان الله! ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، قال: وأحسب أنه كان يقول: فإذا فيه لغط وأصوات. قال: فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا [١] قال: قلت لهما: ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق قال: فانطلقنا فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه[٢] فيلقمه حجراً، فينطلق يسبح، ثم يرجع إليه، كلما رجع إليه، فغر له فاه، فألقمه حجراً».

قال: «قلت لهما: ما هذان؟ قال: قالا لي انطلق انطلق، قال: فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآة [٣]، كأكره ما أنت راء رجلاً مرآة، وإذا عنده نار يحشها ويسعى حولها. قال: قلت لهما: ما هذا؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط».

قال: «قلت لهما ما هذا؟، ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا فانتهينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن. قال: قالا لي:

---

(١) أي رفعوا أصواتهم مختلطة .
(٢) أي يفتح فمه .
(٣) أي قبيح المنظر .

ارق فيها، فارتقيت فيها فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا، فدخلناها فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء، قال: قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، قال: وإذا نهر معترض يجري، كأن ماءه المحض من البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة».

قال: «قالا لي: هذه جنة عدن وهذاك منزلك قال: فسما بصري[١] صُعُداً[٢]، فإذا قصر مثل الربابة [٣] البيضاء، قال: قالا لي هذاك منزلك. قال: قلت لهما بارك الله فيكما، ذراني [٤] فأدخله، قال: أما الآن فلا، وأنت داخله» قال: «قلت لهما: فإني قد رأيت منذ الليلة عجبًا، فما هذا الذي رأيت؟ قال: قالا لي: أما إنا سنخبرك: أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة.

وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق. وأما الرجال والنساء العُراة الذين في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني. وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويُلقَم الحجر فإنه آكل الربا، وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار يحشها، ويسعى حولها، فإنه مالك خازن جهنم، وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم ﷺ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة».

قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ فقال رسول

---

(١) أي نظر إلى فوق.

(٢) ارتفع كثيراً.

(٣) السحابة البيضاء.

(٤) اتركاني.

الله ﷺ: «وأولاد المشركين، وأما القوم الذين كانوا شطراً منهم حسن، وشطراً قبيح، فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، تجاوز الله عنهم»[١].

وفي هذا الحديث بيان لتعذيب بعض العصاة في البرزخ فإن رؤيا الأنبياء وحي مطابق لما في نفس الأمر [٢].

وصح في حديث رسول الله ﷺ أن الميت يُعَذَّب ببكاء - أو نواح - أهله عليه[٣]. أى إذا كان عالمًا بفعلهم ولم ينكره قبل موته.

* * *

قبر المكاس (جابي الضرائب ظلماً) يتحول إلى نار

حدثني صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الرزيز الحزاني: أنه خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بستان قال: فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور فإذا بقبر منها وهو جمرة نار مثل كوز الزجاج والميت في وسطه فجعلت أمسح عيني وأقول: أنائم أنا أم يقظان؟ ثم التفت إلى سور المدينة، وقلت: والله ما أنا بنائم ثم ذهبت إلى أهلي وأنا مدهوش فأتوني بطعام، فلم أستطع أن آكل، ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا به مكاس[٤] قد توفي ذلك اليوم، فرؤية هذه النار في القبر كرؤية الملائكة والجن تقع أحيانًا لمن شاء الله أن يريه ذلك.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح رقم (٧٠٤٧)، ومسلم في الرؤيا .

(٢) فتح الباري (١٢/٤٦٦)، والروح لابن القيم (ص٨٠) .

(٣) أخرجه البخاري رقم (١٢٨٦) .

(٤) أي الذي يجمع الضرائب والمكوس ظلمًا .

أبو جهل يُعذَّب في قبره

وقد ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب «القبور» عن الشعبي أنه ذكر رجلاً قال للنبي ﷺ: مررت ببدر فرأيت رجلاً يخرج في الأرض فيضربه رجل بمقمعة(١) حتى يغيب في الأرض ثم يخرج فيفعل به ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك أبو جهل بن هشام يعذب إلى يوم القيامة». ضعيف.

* * *

القبر يلتهب عليه ناراً

صور المعذَّبين في القبر

عذاب القبر لتارك الصلاة وشارب الخمر والنمام

عن عبد الملك بن مروان أن شابًا جاء إليه حزينًا فقال: يا أمير المؤمنين إني ارتكبت ذنبًا عظيمًا، فهل لي من توبة؟

فقال ما ذنبك؟ قال: ذنبي عظيم، قال: وما هو؟ تب إلى الله فإنه يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، قال: يا أمير المؤمنين كنت أنبش القبور، وكنت أرى فيها أموراً عجيبة. قال: وما رأيت؟ قال يا أمير المؤمنين نبشت ليلاً قبراً فرأيت صاحبه قد حول وجهه عن القبلة، فخفت منه وأردت الخروج، وإذا أنا بقائل يقول في القبر: ألا تسأل عن الميت، لماذا حول وجهه إلى غير القبلة؟ فقلت: لماذا؟ فقال: كان يشرب الخمر في الدنيا، ومات من غير توبة.

---

(١) أي بحديدة.

والثاني يا أمير المؤمنين: نبشت قبراً فوجدت صاحبه يشد بأوتار من نار، وأخرج لسانه عن قفاه، فخفت ورجعت وأردت الخروج، فنوديت ألا تسأل عن حاله، لماذا ابتلي؟ فقلت: لماذا؟ قال: كان لا يتحرز من البول، وكان ينقل الحديث بين الناس، فهذا جزاء مثله .

والثالث يا أمير المؤمنين: نبشت قبراً فوجدت صاحبه قد اشتعل ناراً، فخفت منه وأردت الخروج، وقيل لي: ألا تسأل عن حاله؟ فقلت: ما حاله؟ فقال: كان تاركًا للصلاة.

والرابع يا أمير المؤمنين: نبشت قبراً فوجدت قد وسع على الميت مد البصر وفيه نور ساطع، والميت نائم على سريره وقد أشرق نورهُ، وعليه ثيابًا حسنة، فأخذتني منه هيبة، فأردت الخروج، فقال: ألا تسأل عن حاله؟ لماذا أكرم بهذا الكرم؟ فقلت: لماذا أكرم؟ فقال لي: بأنه كان شابًّا طائعًا نشأ في طاعة الله عز وجل وعبادته .

* * *

الميت يعذب بنياحة أهله عليه

قال صالح المري: كنت ذات يوم جمعة بين المنابر فنمت ، وإذا بالقبور قد شققت وخرج الأموات منها، وجلسوا حلقًا، ونزلت عليهم أطباق مغطية، وإذا فيهم شاب يعذب بأنواع من بينهم، قال: فتقدمت إليه وقلت: يا شاب ما شأنك؟ تعذب من بين هؤلاء القوم؟ قال: يا صالح بالله عليك بلغ ما آمرك به، وأدِّ الأمانة، وارحم غربتي، لعل الله عز وجل أن يجعل لي على يديك مخرجًا إني لما مت ولي والدة جمعت النوادب والنوائح يندبن عليّ، وينحن عليّ كل يوم، فإني معذب بذلك، النار عن يميني وعن شمالي

وخلفي وأمامي لسوء مقال أمي، فلا جزاها الله عني خيراً، ثم بكى حتى بكيت لبكائه، ثم قل لها: لم تعذبين ولدك يا أماه ربيتيني ومن الأسواء وقيتيني، فلما مت في العذاب رميتيني، يا أماه لو رأيت سوء حالي لرحمتيني، وإن لم تتركي ما أنت عليه من الندب والنياحة الله بيني وبينك يوم تنشق سماء عن سماء، ويبرز الخلائق لفصل القضاء.

قال صالح: فاستيقظت فزعًا، ومكثت في مكاني قلقًا إلى الفجر، فلما أصبحت دخلت البلد، ولم يكن لي هم إلا الدار التي لأم الصبي الشاب، فاستدللت عليها، فأتيتها فإذا الباب مسدود، وصوت النوادب والنوائح خارج من الدار، فخرجت العجوز فقالت : ما تريد يا هذا؟ فقلت: أريد أم الشاب الذي مات، فقالت: وما تصنع بها إنها مشغولة بحزنها، فقلت: أرسليها إليّ إن معي رسالة من ولدها، فدخلت فأخبرتها فخرجت أمه وعليها ثياب سود ووجهها قد اسود من كثرة البكاء واللطم، فقالت لي: من أنت؟ قلت: أنا صالح المري، جرى لي البارحة في المقابر كذا وكذا، فلما سمعت المرأة أغشي عليها وسقطت إلى الأرض، فلما أفاقت بكت بكاءً شديداً وقالت: يا ولدي يعز عليّ لو علمت ذلك بحالك ما فعلت، وأنا تائبة إلى الله تعالى من ذلك، ثم دخلت وصرفت النوائح، ولبست غير تلك الثياب، وأخرجت إلي كيسًا فيه دراهم كثيرة، وقالت: يا صالح ؛ تصدق بها على ولدي.

قال صالح: فودعتها ودعوت لها، وانصرفت وتصدقت على ولدها بتلك الدراهم، فلما كانت ليلة الجمعة الأخرى أتيت المقابر على عادتي، فنمت فرأيت أهل القبور وقد خرجوا من قبورهم، وجلسوا على عادتهم، فجاءتهم الأطباق، وإذا ذاك الشاب ضاحك فرح مسرور، فجاءه أيضًا طبق، فأخذه فلما رآني جاء إليّ فقال: يا صالح جزاك الله عني خيراً، خفف الله عني العذاب وذلك بترك أمي ما كانت تفعل، وجاءني ما تصدقت به عني.

قال صالح: فقلت: وما هذه الأطباق؟ فقال: هذه هدايا الأحياء لأمواتهم من الصدقة والقراءة والدعاء، ينزل عليهم كل ليلة جمعة، يقال له: هذه هدية فلان إليك، فارجع إلى أمي وأقرئها مني السلام، وقل لها: جزاها الله عني خير الجزاء[١] .

وهذه القصة التي تشير إلى أن الميت يُعذَّب في القبر بنياحة أهله عليه، محمولة على رضاه بذلك وعلمه حال حياته بما سيحدث من أقاربه، ولم يوصهم بمنع ذلك، فأما إن بلَّغ ذوي قرباه وأوصاهم ولم يعملوا بوصيته فلا جناح عليه ولا عتاب ولا عقاب .

* * *

في عنقه سلسلة يجرّها

وعن عمرو بن دينار، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه قال: بينا أنا أسير بين مكة والمدينة على راحلة وأنا محقب إداوة[٢] ، إذْ مررت بمقبرة، فإذا رجل خارج من قبره يلتهب ناراً، وفي عنقه سلسلة يجرها، فقال: يا عبد الله، انضح[٣] . . . يا عبد الله، انضح، فوالله ما أدري أعرفني باسمي أم كما تدعو الناس، قال: فخرج آخر، فقال: يا عبد الله، لا تنضح. . . يا عبد الله ، لا تنضح، ثم اجتذب السلسلة فأعاده في قبره .

* * *

(١) الكبائر للذهبي .
(٢) أي: أحمل وعاء ماء، وتكون من جلود الأنعام .
(٣) أي رش الماء عليّ .

مُقيَّد في الحديد في القبر

قال ابن أبي الدنيا: حدثني أبي، حدثنا موسى بن داود، حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: بينما راكب يسير بين مكة والمدينة، إذ مر بمقبرة فإذا برجل قد خرج من قبره يلتهب ناراً مصفداً في الحديد، فقال: يا عبد الله، انضح... يا عبد الله، انضح. قال: وخرج رجل آخر يتلوه فقال: يا عبد الله، لا تنضح... يا عبد الله، لا تنضح. قال: وغشي على الراكب، وعدلت به راحلته إلى العرج، قال: وأصبح قد ابيض شعره، فأخبر عثمان بذلك، فنهى أن يسافر الرجل وحده.

* * *

ينهق كالحمار لأنه كان يقول لأمه: انهقي

وذكر من حديث سفيان، حدثنا داود بن شابور، عن أبي قزعة قال: مررنا في بعض المياه التي بيننا وبين البصرة، فسمعنا نهيق حمار، فقلنا لهم: ما هذا النهيق؟ قالوا: هذا رجل كان عندنا كانت أمه تكلمه بالشيء فيقول لها: انهقي نهيقك، فلما مات سُمِعَ هذا النهيق من قبره كل ليلة.

* * *

قبرها يشتعل نارًا؛ لأنها كانت تؤخر الصلاة

وذكر أيضًا عن عمرو بن دينار قال: كان رجل من أهل المدينة وكانت له أخت في ناحية المدينة فاشتكت، وكان يأتيها يعودها، ثم ماتت فدفنها، فلما رجع ذكر أنه نسي شيئًا في القبر كان معه، فاستعان برجل من أصحابه، قال: فنبشنا القبر، ووجدت ذلك المتاع، فقال للرجل: تنحَّ حتى أنظر على أي حالٍ أختي، فرفع بعض ما على اللحد، فإذا القبر مشتعل نارًا، فرده وسوى القبر، فرجع إلى أمه فقال: ما كان حال أختي؟ فقالت: ما تسأل عنها وقد هلكت؟ فقال: لتخبريني، قالت: كانت تؤخر الصلاة ولا تصلي فيما أظن بوضوء، وتأتي أبواب الجيران فتلقم أذنها أبوابهم، وتخرج حديثهم.

عن حصين الأسدي قال: سمعت مرثد بن حوشب قال: كنت جالسًا عند يوسف بن عمر وإلى جنبه رجل كأن شقة وجهه صفحة من حديد، فقال له يوسف: حدث مرثدًا بما رأيت: فقال: كنت شابًا قد أتيت هذه الفواحش، فلما وقع الطاعون، قلت: أخرج إلى ثغر من هذه الثغور، ثم رأيت أن أحضر القبور فإذا بي ليلة بين المغرب والعشاء قد حفرت، وأنا متكئ على تراب قبر آخر إذ جيء بجنازة رجل حتى دفن في ذلك وسووا عليه، فأقبل طائران أبيضان من المغرب مثل البعيرين، حتى سقط أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، ثم أثاراه، ثم تدلى أحدهما في القبر والآخر على شفيره، فجئت حتى جلست على شفير القبر. وكنت رجلاً يملأ جوفي شيء قال: فسمعته يقول: ألست الزائر أصهارك في ثوبين ممصرين تسحبهما كبرًا تمشي الخيلاء؟ فقال: فضربه ضربة امتلأ القبر حتى فاض ماء ودهنًا، ثم

عاد، فأعاد إليه القول حتى ضربه ثلاث ضربات كل ذلك يقول ويذكر أن القبر يفيض ماء ودهنًا قال: ثم رفع رأسه فنظر إليَّ فقال: انظر أين هو جالس أبلسه الله؟ » قال: ثم ضرب جانب وجهي فسقطت فمكثت ليلتي حتى أصبحت، قال: ثم أخذت أنظر إلى القبر فإذا هو على حاله.

فهذا الماء والدهن في رأي العين لهذا الرائي هو نار تأجج للميت كما أخبر النبي ﷺ عن الدجال أنه يأتي معه بماء ونار، فالنار ماء بارد، والماء نار تأجج.

* * *

تحولوا لغير القبلة

وذكر ابن أبي الدنيا أن رجلاً سأل أبا إسحاق الفزاري عن النباش هل له توبة؟ فقال: نعم إن صحت نيته وعلم الله منه الصدق، فقال له الرجل: كنت أنبش القبور وكنت أجد قومًا وجوههم لغير القبلة، فلم يكن عند الفزاري في ذلك شيء، فكتب إلى الأوزاعي يخبره بذلك، فكتب إليه الأوزاعي: تقبل توبته إذا صحت نيته وعلم الله الصدق في قلبه، وأما قوله: إنه كان يجد قومًا وجوههم لغير القبلة، فأولئك قوم ماتوا على غير السنة.

* * *

رجل مسمر بالمسامير في القبر

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني عبد المؤمن بن عبد الله بن عيسى القيسي أنه قيل لنباش قد تاب: ما أعجب ما رأيت؟ قال: نبشت فإذا هو مسمر بالمسامير في سائر جسده ومسمار كبير في رأسه وآخر في رجليه.

قال: وقيل لنباش آخر: ما أعجب ما رأيت؟ قال: رأيت جمجمة إنسان مصبوبًا فيها رصاص.

قال: وقيل لنباش آخر: ما كان سبب توبتك؟ قال: عامة من كنت أنبش كنت أراه محوَّل الوجه عن القبلة.

* * *

عظام الميت صارت مسامير

قلت: وحدثني صاحبنا أبو عبد الله محمد بن مساب السلامي -وكان من خيار عباد الله وكان يتحرى الصدق- قال: جاء رجل إلى سوق الحدادين ببغداد فباع مسامير صغار، المسمار برأسين فأخذها الحداد وجعل يحمي عليها فلا تلين معه، حتى عجز عن ضربها، فطلب البائع فوجده، فقال: من أين لك هذه المسامير؟ فقال: لقيتها، فلم يزل به حتى أخبره أنه وجد قبرًا مفتوحًا وفيه عظام ميت منظومة بهذه المسامير، قال: فعالجتها على أن أخرجها، فلم أقدر، فأخذت حجرًا فكسرت عظامه وجمعتها، قال: وأنا رأيت تلك المسامير، قلت له: فكيف صفتها؟ قال: المسمار صغير برأسين.

قال ابن أبي الدنيا: وحدثني أبي عن أبي الحريش، عن أمه، قالت: لما حفر أبو جعفر خندق الكوفة حول الناس موتاهم فرأينا شابًا مما حول عاضًا

على يده.

وذكر عن سماك بن حرب قال: مر أبو الدرداء بين القبور، فقال: ما أسكن ظاهرك، وفي داخلك الدواهي؟.

وقال ثابت البناني: بينا أنا أمشي في المقابر وإذا صوت خلفي وهو يقول: يا ثابت لا يغرنك سكونها فكم من مغموم فيها فالتفت فلم أر أحداً.

ومر الحسن على مقبرة، فقال: يا لهم من عسكر ما أسكنهم وكم فيهم من مكروب؟

* * *

تحولت وجوههما إلى أقفيتهما

وذكر ابن أبي الدنيا أن عمر بن عبد العزيز قال لمسلمة بن عبد الملك: يا مسلمة؛ من دفن أباك؟ قال: مولاي فلان، قال: فمن دفن الوليد؟ قال: مولاي فلان، قال: فأنا أحدثك ما حدثني به، أنه لما دفن أباك والوليد فوضعهما في قبورهما وذهب ليحل العقد عنهما وجد وجوههما قد حولت في أقفيتهما، فانظر يا مسلمة إذا أنا مت فالمس وجهي، فانظر هل نزل بي ما نزل بالقوم، أو هل عوفيت من ذلك؟ قال مسلمة: فلما مات عمر وضعته في قبره فلمست وجهه، فإذا هو مكانه.

وذكر ابن أبي الدنيا عن بعض السلف، قال: ماتت ابنة لي فأنزلتها القبر فذهبت أصلح اللبنة فإذا هي قد حولت عن القبلة، فاغتممت لذلك غماً شديداً فرأيتها في النوم، فقالت: يا أبت اغتممت لما رأيت فإن عامة من حولي محولون عن القبلة، قال: كأنها تريد الذين ماتوا مصرين على الكبائر.

وقال عمرو بن ميمون: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول: كنت سألت من دلّى الوليد بن عبد الملك في قبره فنظرت إلى ركبتيه قد جمعتا في عنقه، فقال ابنه: عاش أبي ورب الكعبة، فقلت: عوجل أبوك ورب الكعبة، فاتعظ بها عمر بعده..

وقال عمر بن عبد العزيز ليزيد بن المهلب، لما استعمله على العراق: يا يزيد اتق الله فإني حين وضعت الوليد في لحده، فإذا هو يركض في أكفانه.

* * *

الثعبان الأسود ينتظر آكل الحرام

وقال يزيد بن هارون: أخبرنا هشام بن حسان، عن واصل مولى أبي عيينة، عن عمر بن زهدم، عن عبد الحميد بن محمود، قال: كنت جالسًا عند ابن عباس فأتاه قوم فقالوا: إنا خرجنا حجاجًا ومعنا صاحب لنا إذ أتينا فإذا الصاحب مات، فهيّأناه، ثم انطلقنا فحفرنا له ولحدنا له، فلما فرغنا من لحده إذا نحن بأسود[1] قد ملأ اللحد فحفرنا له آخر فإذا به قد ملأ لحده فحفرا له آخر فإذا به قد ملأ لحده.

فقال ابن عباس: ذاك الغُل الذي يغل به انطلقوا فادفنوه في بعضها، فوالذي نفسي بيده لو حفرتم الأرض كلها لوجدتموه فيه، فانطلقنا فوضعناه في بعضها، فلما رجعنا أتينا أهله بمتاع له معنا، فقلنا لامرأته: ما كان يعمل زوجك؟ قال: كان يبيع الطعام فيأخذ منه كل يوم قوت أهله، ثم يقرض الفضل مثله فيلقيه فيه.

* * *

(١) أي بثعبان أقرع أسود..

يصور نفسه في القبر

كان الربيع بن خثيم قد حفر قبراً في بيته ليتذكر الموت وشدته ، والقبر وروعته ثم ينام في هذا القبر وقد غطى القبر بخشبة، وجلس على هيئة الميت، يفكر في حاله ويتذكر فتنة القبر، وسؤال منكر ونكير، فإذا اشتد به الحر، وقرب الظلام نادى وقال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]. ثم يرفع الخشبة ويقول: يا نفس ها أنت قد عُدتِ فاعملي ما قُلت.

وأعجب من هذا: أن روح النائم يحصل لها في المنام آثار، فتصبح يراها على البدن عياناً، وهي من تأثير الروح في الروح، كما ذكر القيرواني في كتاب «البستان» عن بعض السلف.

***

ذبحه عمر -رضي الله عنه- في المنام

قال: كان لي جار يشتم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما كان ذات يوم أكثر من شتمهما، فتناولته وتناولني، فانصرفت إلى منزلي وأنا مغموم حزين، فنمت وتركت العشاء، فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله، فلان يسب أصحابك، قال: من أصحابي؟ قلت: أبو بكر وعمر، فقال: خذ هذه المدية فاذبحه بها، فأخذتها فأضجعته وذبحته، ورأيت كأن يدي أصابها منه دمه، فألقيت المدية وأهويت بيدي إلى الأرض لأمسحها، فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من نحو داره، فقلت ما هذا الصراخ؟ قالوا: فلان مات فجأة، فلما أصبحنا جئت فنظرت إليه، فإذا خط موضع الذبح.

اسود نصف وجهه وهو يغطيه

وفي كتاب «المنامات» لابن أبي الدنيا، عن شيخ من قريش، قال: رأيت رجلاً بالشام قد اسود نصف وجهه وهو يغطيه، فسألته عن ذلك؟ فقال: قد جعلت على أن لا يسألني أحد عن ذلك إلا أخبرته به، كنت شديد الوقيعة في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فبينا أنا ذات ليلة نائم إذا أتاني آت في منامي، فقال: أنت صاحب الوقيعة فيَّ؟ فضرب شق وجهي، فأصبحت وشق وجهي أسود كما ترى.

* * *

ضرب شق وجهه في المنام فاسودَّ وجهه في اليقظة

ذكر مسعدة في كتابه في الرؤيا عن ربيع بن الرقاشي، قال: أتاني رجلان فقعدا إليّ، فاغتابا رجلاً فنهيتهما، فأتاني أحدهما بعد، فقال: إني رأيت في المنام كأن زنجيًا أتاني بطبق عليه جَنب خنزير، لم أر لحمًا قط أسمن منه، فقال لي: كل، فقلت: آكل لحم الخنزير؟ فتهددني، فأكلت فأصبحت وقد تغير فمي فلم يزل يجد الريح في فمه شهرين.

* * *

جاءه في المنام من يأمره بالقيام

وكان العلاء بن زياد له وقت يقوم فيه، فقال لأهله تلك الليلة: إني أجد فَتْرة، فإذا كان وقت كذا فأيقظوني، لم يفعلوا، قال: فأتاني آتٍ في منامي فقال: قم يا علاء بن زياد اذكر الله يذكرك، وأخذ بشعرات في مقدم رأسي، فقامت تلك الشعرات في مقدم رأسي، فلم تزل قائمة حتى مات. قال يحيى ابن بسطام: فلقد غسلناه يوم مات، وإنهن لقيام في رأسه.

* * *

رجل نصف وجهه أسود ونصفه أبيض

وذكر ابن أبي الدنيا عن أبي حاتم الرازي، عن محمد بن علي، قال: كنا بمكة في المسجد الحرام قعوداً، فقام رجل نصف وجهه أسود ونصفه أبيض، فقال: يا أيها الناس اعتبروا بي فإني كنت أتناول الشيخين وأشتمهما، فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ أتاني آت فرفع يده فلطم وجهي وقال لي: يا عدو الله يا فاسق، ألست تسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما؟، فأصبحت وأنا على هذه الحالة.

* * *

ذُبِحَ في النوم وذُبح في الحياة

قال محمد بن عبد الله المهلبي: رأيت في المنام كأني في رحبة بني فلان وإذا النبي ﷺ جالس على أكمة، ومعه أبو بكر وعمر واقف قدامه، فقال له عمر: يا رسول الله، إن هذا يشتمني ويشتم أبا بكر، فقال: جئ به يا أبا حفص، فأتي برجل فإذا هو العماني وكان مشهوراً بسبهما، فقال له النبي ﷺ: أضجعه فأضجعه، ثم قال: اذبحه، فذبحه، قال: فما نبهني إلا صياحه، فقلت: ما لي لا أخبره؟ عسى أن يتوب، فلما اقتربت من منزله سمعت بكاءً شديداً، فقلت: ما هذا البكاء؟ فقالوا: العماني ذبح البارحة على سريره، قال: فدنوت من عنقه، فإذا من أذنه إلى أذنه طريقة حمراء كالدم المحصور.

* * *

فقأ عليٌّ -رضي الله عنه- عيني الرجل في النوم فاستيقظ كذلك

قال القيرواني: أخبرني شيخ لنا من أهل الفضل قال: أخبرني أبو الحسن المطلبي إمام مسجد النبي ﷺ قال: رأيت بالمدينة عجبًا! كان رجل يسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فبينا نحن يومًا من الأيام بعد صلاة الصبح إذ أقبل رجل وقد خرجت عيناه وسالتا على خديه، فسألناه ما قصتك؟ فقال: رأيت البارحة رسول الله ﷺ وعلي بين يديه ومعه أبو بكر وعمر، فقالا: يا رسول الله، هذا الذي يؤذينا ويسبنا! فقال لي رسول الله ﷺ: من أمرك بهذا يا أبا قيس؟ فقلت له: عليٌّ وأشرت عليه، فأقبل عليٌّ بوجهه ويده، وقد ضم أصابعه وبسط السبابة والوسطى وقصد بها إلى عيني، فقال: إن كنت

كذبت فقأ الله عينيك، وأدخل أصبعيه في عيني، فانتبهت من نومي، وأنا على هذه الحال، فكان يبكي يخبر الناس، وأعلن بالتوبة.

* * *

أحاط به أسدان لمخالفته السنة

قال القيرواني: وأخبرني شيخ من أهل الفضل قال: أخبرني فقيه قال: كان عندنا رجل يكثر الصوم ويسرده، ولكنه كان يؤخر الفطر، فرأى في المنام كأن أسودين آخذين بضبعيه وثيابه إلى تنور محمي ليلقياه فيه قال: فقلت: على ماذا؟ فقالا: على خلافك لسنة رسول الله ﷺ فإنه أمر بتعجيل الفطر وأنت تؤخره. قال: فأصبح وجهه قد اسود من وهج النار، فكان يمشي متبرقعًا في الناس.

«وأعجب من هذا الرجل الذي يَرى في المنام -وهو شديد العطش والجوع والألم- أن غيره قد سقاه وأطعمه أو داواه بدواء فيستيقظ وقد زال عنه ذلك كله، وقد رأى الناس من هذا عجائب».

* * *

رد الله السحر

وقد ذكر مالك، عن أبي الرجال، عن عمرة، عن عائشة أن جارية لها سحرتها، وأن سنديًا دخل عليها وهي مريضة، فقال: إنك سُحِرت، قالت: ومن سحرني؟ قال: جارية في حجرها صبي قد بال عليها، فدعت جاريتها، فقالت: حتى أغسل بولاً في ثوبي، فقالت لها: أسحرتني؟ قالت: نعم، قالت: وما دعاك إلى ذلك؟ قالت: أردت تعجيل عتقي، فأمرت أخاها أن يبيعها من الأعراب ممن يسيء ملكها، فباعها، ثم إن عائشة رأت في منامها أن اغتسلي من ثلاث آبار يمد بعضها بعضًا، فاستسقي لها فاغتسلت فبرأت.

الخليل إبراهيم -عليه السلام- مسح عينيه فأبصر

وكان سماك بن حرب قد ذهب بصره فرأى إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في المنام، فمسح على عينيه، وقال: اذهب إلى الفرات فتنغمس فيه ثلاثًا. ففعل فأبصر.

* * *

عمي ثمَّ أبصر

وكان إسماعيل بن بلال الحضرمي قد عمي فأتي في المنام فقيل له: قل: يا قريب يا مجيب يا سميع الدعاء يا لطيف بمن تشاء، رد عليّ بصري، فقال الليث بن سعد: أنا رأيته قد عمي، ثم أبصر.

* * *

الميت يقرأ في مصحف من ذهب

نقل [السهيلي] في دلائل النبوة عن بعض أصحابه أنه [حفر] في مكان فانفتحت طاقة، فإذا شخص على سرير، وبين يديه مصحف يقرأ فيه، [وأمامه] روضة خضراء وذلك بأُحُد [وعَلِمَ] أنه من الشهداء؛ لأنه رأى في صفحة وجهه جرحًا، وأورد ذلك أيضًا أبو حبان، ويُشبه هذا ما حكاه اليافعي في [روض] الرياحين عن بعض الصالحين، قال: حفرت قبرًا لرجل من العُبَّاد وألحدته، فبينا أنا أسوي اللحد إذ سقطت لَبِنَة من قبره، فنظرت فإذا [بشيخ] جالس في القبر عليه ثياب بيض تقعقع وفي حِجْرِه مصحف من ذهب مكتوب بالذهب، وهو يقرأ فيه، فرفع رأسه إليّ وقال لي: أقامت

القيامة رحمك الله، قلت لا، فقال: رُدَّ اللَّبِنة إلى موضعها عافاك الله فرددتها.

* * *

الميت يقرأ في المصحف في القبر

وقال اليافعي أيضًا روينا [عَمَّنْ] حفر القبور من الثقات: «أنه حفر قبرًا فأشرف فيه على إنسان جالس على سرير وبيده مصحف يقرأ فيه وتحته نهر يجري فغشي عليه، وأخرج من القبر، ولم يدروا ما أصاب، فلم يُفِقْ إلا في اليوم الثالث».

* * *

الميت يلقِّن الحي

وحكي أيضًا عن الشيخ نجم الدين الأصبهاني: «أنه حضر رجلاً يدفن فقعد الملقِّنُ يلقنه فسمع الميت وهو يقول: ألا تعجبون من ميت يُلَقِّن حيًّا؟».

* * *

الميت يقول: أنا من أهل الجنة

وحكي أيضًا عن المحب الطبري [أحد أئمة الشافعية وهو شارح التنبيه]: «أنه كان مع الشيخ إسماعيل [الحضرمي بمقبرة] زبيد، قال المحب: فقال [لي: يا محب الدين أتؤمن بكلام الموتى؟ قلت: نعم، قال: إن صاحب هذا القبر يقول لي: أنا من حشو الجنة». أي من أهلها.

* * *

رأى الموتى يُعذَّبون فدعا لهم فَرُفِع العذاب

وحُكي أيضًا عن الشيخ إسماعيل المذكور أنه مر على بعض [مقابر] اليمن فبكى بكاءً شديدًا وعلاه [حزن]، ثم ضحك ضحكًا شديدًا وعلاه سرور، فسُئِل عن ذلك؟ فقال: كُشِف لي عن هذه المقبرة، فرأيتهم يُعَذبون، فبكيت، ثم تضرعت إلى الله فيهم، فقيل لي: قد شفعناك فيهم، فقالت صاحبة هذا القبر: وأنا معهم يا فقيه إسماعيل أنا فلانة المغنية فقلت: وأنت معهم فأنا رأيتها ضحكت.

* * *

الميت يبتسم ويتكلم

وحُكي أيضًا [عن] الشيخ أبي سعيد الخراز، قال: كنت بمكة فرأيت بباب بني شيبة شابًا ميتًا، فلما نظرت إليه تبسم في وجهي، وقال لي: أبا سعيد؛ أما علمت أن الأحياء أحياءٌ وإن ماتوا، وإنما ينقلون من دار إلى دار؟

* * *

الميت يفتح عينه ويتكلم!!

وحُكي أيضًا عن الشيخ أبي علي [الروباذي]: «أنه [ألحد فقيرًا]، فلما فتح [رأس] كفنه [ووضعه على التراب ليرحم الله غربته]، فتح له عينه، وقال: يا أبا علي [لا تذللني بين يدي من يدللني] فقال: يا سيدي أحياة بعد الموت؟ قال لي: بل أنا حي، وكل محب لله حي، لأنصرنك بجاهي غدًا.

وعن بعضهم قال: غسلت مريدًا فأمسك إبهامي، وأنا على المغتسل،

فقلت: يا بني خلٍّ يدي، فإني أدري أنك لست بميت، وإنما هي نُقلة فخلٍّ عن يدي .

* * *

يُمشِّطونه في القبر!!

وعن يونس بن أبي فرات قال: حفر رجل قبراً فقعد يستظل فيه من الشمس، فإذا بريح باردة قد أصابت ظهره، فنظر فإذا ثقب صغير فوسَّعه بإصبعه، فإذا قبر فنظر فيه مد البصر، وإذا بشيخ مخضوب كأنما رَفَعَت المواشط أيديها عنه، من التكريم والتنعيم والتشريف.

* * *

حية تطوّق حلْق ساب الصحابة

أخرج عن أبي إسحاق قال: «دُعيت إلى ميت لأغَسله فلما [كشفت] الثوب عن وجهه، إذا بحية قد تطوقت على حلقه، فذكروا أنه كان يسب الصحابة رضي الله عنهم».

* * *

وجوههم تحولت إلى غير القبلة

وأخرج أيضاً عن أبي إسحاق الفزاري: «أنه أتاه رجل فقال: كنت أنبش القبور، وكنت أجد قوماً وجوههم لغير القبلة، فكتب إلى الأوزاعي يسأله فقال: أولئك قوم ماتوا على غير السنة».

* * *

الواجب علينا نحو من حضرته الوفاة

يجب علينا تجاه مَن حضرته الوفاة:

أولاً: تلقين المحتضر: لا إله إلا الله:

فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»[(١)].

والتلقين يكون بلطف وعدم الإكثار عليه. والأولى أن يعرض عليه بمعنى: أن يقول له: أذكرك لا إله إلا الله، من قال لا إله إلا الله دخل الجنة.

ثانيًا: تغميض عين من حضرته الوفاة:

فعن أم سلمة قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق[(٢)] بصره، فأغمضه ثم قال: «إن الروح إذا قُبض تبعه البصر» فضج ناس من أهله فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون»، ثمّ قال: «اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عَقِبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره ونوِّر له فيه»[(٣)].

ثالثًا: ومما يفعل أيضًا:

قال الشافعي: أول ما يبدأ به مَن يحضر الميت من أوليائه، أن يتولى أرفقهم به إغماض عينيه بأسهل ما يقدر عليه، وأن يشد تحت لحييه عصابة

---

(١) مسلم رقم (٩١٦)، وأبو داود رقم (٣١٧٧)، والنسائي (٤/ ٥)، والترمذي (٩٧٦)، وابن ماجه (١٤٤٥).

(٢) شق: شخص. صار ينظر إلى الشيء لا يرتد إليه بصره.

(٣) رواه مسلم رقم (٩٢٠).

عريضة وتربط من فوق رأسه كيلا يسترخي لحيه(*) الأسفل فينفتح فوه (فمه)، ثم يجسو بعد الموت، ولا ينطبق، ويرد يديه حتى يلصقهما بعضديه، ثمّ يبسطهما، ثمّ يردهما، ثمّ يبسطهما مرات ليبقى لينهما، فلا يجسو وهما إذا لُيِّنا عند خروج الروح تباقي لينهما إلى وقت دفنه ففكتا وهما لينتان، ويُليِّن كذلك أصابعه ويرد رجليه من باطن حتى يلصقهما ببطون فخذيه، كما وصفت فيما يصنع في يديه ويضع على بطنه شيئًا من طين أو لبنة أو حديدة أو غيره فإن بعض أهل التجربة يزعمون أن ذلك يمنع بطنه أن تربو ويخرج من تحته الوطئ [1] كله [2].

رابعًا: توجيه المحتضر إلى القبلة:

عن عطاء قال: إنه يستحب أن يوجه الميت عند نزعه إلى القبلة؟ قال: نعم، وورد مثله عن الحسن البصري [3].

وكان النبي ﷺ يستقبل القبلة في الدعاء، وقد كان السلف يوجهون المحتضرين إلى القبلة واستحب جمهور العلماء هذا الفعل [4].

كيف يوجَّه الميت إلى القبلة؟

فيه وجهان مُستحبان:

أحدهما: على قفاه وأخمصاه إلى القبلة ويرفع رأسه قليلاً ليصير وجهه إلى القبلة.

(*) جانب الشفة.

(١) لا يجعل تحته قماش أو وسادة أو نحو ذلك.

(٢) الأم (١/٢٤٨)، وراجع المغني لابن قدامة (٢/٤٥١).

(٣) المصنف لعبد الرزاق (٣/٣٩١) وهو صحيح عنهما.

(٤) المجموع للنووي (٥/١١٦)، والمغني (٢/٤٥١)، وسبل السلام (٥٣٦)، ونيل الأوطار (٤/٢١)، والمحلى (٥/١٧٣، ١٧٤).

الثاني: يضجع على جنبه الأيمن مستقبل القبلة كالموضوع في اللحد، فإن لم يمكن لضيق المكان أو غـيره، فعلى جنبه الأيسر إلى القـبلة، فإن لم يمكن فعلى قفاه [١].

والأولى أن يكون على جنبه الأيمن؛ لأن السنة النوم على الجنب الأيمن.

خامسًا: قراءة يس عنده، وقد جاء فيها حديث تكلم فيه المحدثون، وعلى كلٍّ فقراءتها عنده مستحبة عند العلماء.

سادسًا: أن يحضر الصالحون والعلماء عنده؛ ليلقنوه أخبار الرجاء من مثل «من قـال: لا إله إلا الله خـالصًـا من قلبـه دخـل الجنة» وغـيـر ذلك من الآيات والأحاديث، حتى يموت وهو يرجو عفو الله تعالى.

سابعًـا: أن يؤخذ شـعر إبطه وتُقلم أظافـره ويقصَّر شاربه، وتتولَّى زوجته حلق عانته.

* * *

(١) المجمـوع شرح المهـذب للنوي (١١٦/٥)، وراجع: الغـسل والكفن للشيخ مـصطفى العدوي، واستفدت منه هنا. وراجع: أحكام الجنائز للألباني.

الواجب علينا نحوه بعد الخاتمة (الموت)

١- الغسل.

٢- الكفن والصلاة عليه، ودفنه، ثمّ تعزية أهله.

٣- قضاء ديونه وتقدم ديون العباد على ديون رب العباد، فلو كان عليه دين لرجل، وعليه زكاة المال يقدم دين الرجل.

٤- تنفيذ وصاياه.

٥- تقسيم تركته.

وإليك فكرة سريعة عمّا سبق:

الغُسل: غسل الميت واجب وجوبًا كفائيًّا، إذا فعله البعض سقط عن الباقين.

ولا يجب على المسلمين غسل الكافر، لكنه جائز.

الكفن: وهو فرض كفاية إن فعله البعض سقط عن الباقين، وهو من ماله، وإلا فمن مال مَن يجب عليه نفقته، وإلا فمَن بيت مال المسلمين، فإن لم يوجد فعلى المسلمين.

الصلاة عليه: وهي فرض كفاية.

وصلاة الجنازة أربع تكبيرات بعد الأولى تقرأ الفاتحة، وبعد الثانية يُصلى على النبي ﷺ بالصيغة الإبراهيمية: النصف الثاني من التشهد، وبعد الثالثة الدعاء له، وبعد الرابعة: الدعاء للمؤمنين والمؤمنات.

الدفن: ولا يرتفع قبره أكثر من شبر أو شبرين ولا يجصص ولا يكتب عليه.

العزاء في الإسلام: أن تقول لأهله فقط: لله ما أخذ ولله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى. وأما الاجتماع والصوان والأربعين والخميس والسنوية، وإحضار الطعام من أهل الميت كل ذلك بدع إلاّ لضرورة.

* * *

المسلم والوصية الشرعية

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا حقٌّ امرئٍ مسلم يبيتُ ليلتين وله شيءٌ يُريد أن يُوصي فيه، إلا ووصيته مكتوبةٌ عند رأسه». متفق عليه.

هذا ما أوصي به أنا ....

أنني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأوصي من تركت من أهلي أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين وأوصيهم بما أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقد أوصيت بما يأتي:

١- أن تدعو بعض الصالحين عند احتضاري ليذكروني بحسن الظن بالله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «لا يَموتن أحدُكم إلا وهو يُحسن الظنَّ بالله». رواه مسلم.

٢- تلقيني الشهادة وإلزامي النطق بها لقوله ﷺ: «من كان آخرُ كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» رواه أبو داود بسند صحيح. وأوصيكم بالصبر والرضا بقضاء الله تعالى وقدره والدعاء لي بحسن الخاتمة، كما قال ﷺ: «إذا حضرتُم المريضَ أو الميتَ فقُولوا خيراً، فإنَّ الملائكة يُؤمِنون على ما تقُولُونَ» رواه مسلم.

٣- إذا فاضت الروح إلى بارئها، فعليكم بتغميض عيني، وشد فكي

السفلي بقماشة عريضة من فوق رأسي والدعاء لي بالمغفرة، وأوصيكم بتغطيتي بثوب يستر جميع بدني، لحديث عائشة رضي الله عنها، قالت: إن رسول الله ﷺ حين تُوفي سُجِّي ببرد حبرة. متفق عليه.

٤- أوصيكم بعدم النياح عليّ، وعدم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، لقوله ﷺ: «لَيسَ منَّا من لَطَمَ الخدودَ وشَقَّ الجيوبَ - الثياب- ودَعا بدعوى الجاهلية» رواه مسلم، وأوصي بعدم تقبيلي مما لا يجوز لها ذلك في حياتي.

٥- أوصيكم أن الذي يغسلني يكون أعرف الناس بسنة الغسل مع اشتراط الصلاح والتقوى، ولا سيما إن كان من أهلي وأقاربي، وأوصي من تولى غسلي حتى يفوز بالأجر العظيم والثواب العميم أن يستر عليّ، ولا يحدث عني بما قد يرى من المكروه، وأن يبتغي بعمله هذا وجه الله تعالى. قال رسول الله ﷺ: «من غَسَّل ميتًا فَسَتَرَهُ، ستره اللهُ من الذنوب، ومن كفنه كساه الله من السُّندس» أخرجه الطبراني في الكبير بسند صحيح. وأوصيكم أن تجعلوا كفني من البياض وطيبوه ثلاثًا، لقوله ﷺ: «البسُوا من ثيابِكم البياضَ، فإنه خيرُ ثيابِكم وكفِّنوا فيها مَوتاكم» (رواه أبو داود والترمذي بسند صحيح).

٦- وأوصيكم أن تحملوا جنازتي لتصلوا عليَّ، ثم تتبعوني إلى قبري. قال رسول الله ﷺ: «حقُّ المسلمِ عَلى المسلمِ خَمسٌ» فذكر منها: «اتباعُ الجنائز» متفق عليه.

وقال ﷺ: «من شهد الجنازة من بيتها حتى يُصلى عليها فله قيراطٌ، ومن شَهِدَها حتى تُدفن فلهُ قيراطان من الأجرِ»، قيل: يا رسول الله ﷺ: وما القيراطان؟، قال: «مثل الجبلين العظيمين» رواه البخاري. وفي رواية: «كلُّ

قيراط مثلُ جبل أُحد» وأوصيكم أن تجتهدوا في تكثير سواد الموحدين على جنازتي لعلّي أن أنال بدعائهم شفاعة بإذن الله تعالى. لحديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «ما من رجل مُسلم يموتُ فيقومُ على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا إلا شَفَّعهُم اللهُ فيه».

٧- وأوصيكم أن لا تتبع جنازتي امرأة، فإن أبت فبغير نواح ولا صوت ولا إظهار عورة، كما تفعله كثيرات من النساء في هذا الزمان، لحديث أم عطية وفيه «... كنا نُنهى عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا» رواه البخاري ومسلم.

٨- وأوصيكم أن تدفنوني في البلد الذي مت فيه، وألا تنقلوني إلى غيره، حيث يكره نقل الميت من بلد إلى آخر لأجل الدفن إلا لضرورة.

٩- وأوصيكم بقضاء صيام النذر عني الذي لم أتمكن من قضائه، لحديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: «من مات وعليه صيامٌ صامَ عنه وليه» متفق عليه.

وأوصي أولادي خاصة أن يكثروا من الأعمال الصالحة، فإن ذلك مما ينفعني بإذن الله تعالى وذلك لحديث: «إذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ عَمَلُه إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علمٍ يُنتفعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يَدعو لَه» أخرجه مسلم.

١٠- ويشرع لكم أن تقبلوا العزاء بعد دفني، ولكن لا تجتمعوا للتعزية في مكان مخصص لذلك، ولا تصنعوا لأحد طعام، بل يصنع لكم أقاربي وجيراني، فإن ذلك من السنة، وليس العكس، كما هو الشأن في زماننا والدليل حديث جعفر بن أبي طالب مرفوعًا: «اصنعوا لآل جعفر طعامًا، فقد أتاهم ما يشغلهم» (رواه أبو داود بسند صحيح).

وأوصيكم أيضًا بتجنب عمل السرادقات، وإحضار القراء في هذه الليلة

وما بعدها من ليال نحو الخميس، والجمعة، والأربعينيات، والسنويات، وغير ذلك، فكل ذلك من البدع، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

١١- أوصيكم بقضاء ديني من مالي قبل دفني وأن تردوا لكل ذي حق حقه.

لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه» أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والدارمي بسند صحيح، وإن لم يكن عندي مال قضى أحد أقاربي أو تطوع بعض الناس.

وحتى الشهيد في القتال لا بد من قضاء الدين عنه قال رسول الله ﷺ: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين» أخرجه مسلم.

ما عليَّ: اسم الدائن .... قيمة الدين .... نوع الدين .... عنوان وتليفون الدائن ....

ما لي: اسم المدين .... قيمة الدين .... نوع الدين .... عنوان وتليفون المدين..............

وقد أوصيت بمبلغ .... للفقراء والمساكين من مالي على شرط ألا يزيد عن الثلث وأوصيت أن تكون كتبي لـ...........

وقد أوصيت:

هذا ما ارتضيته لديني ودنياي، وأوصي بما جاء فيه، وبالجملة فإني أبرأ إلى الله من كل فعل أو قول يخالف الشرع الشريف ومن أهمل في تنفيذ هذه الوصية أو بدلها أو خالف الشرع في شيء ذكر أو لم يذكر فعليه وزره ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨١].

* من يقوم بتغسيلي:

وهم: ١- .... ٢- .... ٣- ....

* من يدعى للصلاة عليَّ أولاً إمامًا وهو: ....

ثانيًا: مأمومًا وهم: ....

* من ينزل معي قبري وهم: ....

إقرار الموصي بما فيه: ....

الاسم: ....

العنوان: ....

الشهود: ....

١- الاسم: .... ٢- الاسم: ....

العنوان .... العنوان: ....

التوقيع: .... التوقيع: ....

تحريرًا في/ السنة الهجرية / / السنة الميلادية / /

اللهم صلِّ وسلم على نبينا محمد ﷺ

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

وكل مسلم يضيف إلى وصيته الشرعية ما يراه من أخطاء أو أمور يلزم الأمر بها أو النهي ومن هذه البدع والأخطاء:

١- الحداد على الميت أكثر من أربعة أشهر وعشر للزوجة.

٢- قراءة سورة يس عند القبور.

٣- نعي الجاهلية وهو ما فيه فخر وذكر للأحساب والأنساب، ومرور بعض الناس بالسيارات على القرى والمدن ينعون الميت على وجه الفخر. . . .

٤- الجنازة العسكرية، وما يحدث فيها من بدع كسلام الشهيد . . . . . .

٥- عمل العتاقة: ويقصد بها ما يُذبح عند النعش.

٦- وضع مصحف أو آيات من القرآن أو قطعة قماش بها حناء تحت إبط الميت أثناء الكفن.

٧- وضع الورود بداخل القبر.

٨- قراءة سورة الإخلاص إحدى عشرة مرة بعد الصلاة على الجنازة.

٩- الشهادة للميت بعد الصلاة عليه أو عند الدفن، ويكون في ذلك رياء ومداهنة.

* * *

حديث خطير

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه- قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إنَّ أحدكم يُجمعُ خَلْقَه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثمّ يكون علقة مثل ذلك، ثمّ يكون مضغة مثل ذلك، ثمّ يُرسل إليه الملَك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أم سعيد فوالله الذي لا إله غيره؛ إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» رواه البخاري ومسلم [1].

هذا الحديث متفق على صحته وتلقته الأمة بالقبول رواه الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود، ومن طريقه خرَّجه الشيخان في صحيحيهما.

- وقد روي عن محمد بن يزيد الإسقاطي قال: رأيت النبي ﷺ فيما يرى النائم فقلت: يا رسول الله حديث ابن مسعود الذي حدَّث عنك فقال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق فقال: والذي لا إله غيره حدثته به أنا يقوله ثلاثًا، ثم قال: غفر الله للأعمش كما حدّث به وغفر الله لمن حدَّث قبل الأعمش ولمن حدَّث به بعده.

وقوله: «فوالله الذي لا إله غيره . . . إلخ»، هذا مدرج من كلام ابن مسعود -رضي الله عنه- كذلك رواه مسلم هكذا عنه.

وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من وجوه متعددة أيضًا.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٢٠٨) كتاب بدء الخلق، ومسلم رقم (٢٦٤٣) كتاب القدر.

وفي صحيح البخاري، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ قال: «إنما الأعمال بالخواتيم»، وفي صحيح ابن حبان عن عائشة -رضي الله عنها- عن النبي ﷺ قال: «إنما الأعمال بالخواتيم».

وفيه أيضًا عن معاوية، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنما الأعمال بخواتيمها، كالوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة، ثمّ يختم له عمله بعمل أهل النار، وإنَّ الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار، ثمّ يختم له بعمل أهل الجنة».

وخرّج الإمام أحمد رحمه الله من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا عليكم أن لا تعجبوا بأحد حتى تنظروا بما يُختم له، فإن العامل ليعمل زمانًا من عمره أو برهة[١] من دهره بعمل صالح، ولو مات عليه دخل الجنة، ثم يتحول فيعمل عملاً سيئًا، وإن العبد ليعمل البرهة من عُمره بعمل سيئ لو مات عليه دخل النار، ثم يتحول فيعمل عملاً صالحًا»[٢].

وخرّج أيضًا من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، وهو مكتوب في الكتاب من أهل النار، فإن كان قبل موته تحوَّل يعمل بعمل أهل النار فمات فدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، وإنه لمكتوب في الكتاب من أهل الجنة فمات فدخلها»[٣].

وخرّج الإمام أحمد والنسائي والترمذي من حديث عبد الله بن عمر

---

(١) الزمان الطويل أو أعم.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٠) مرفوعًا، (٣/ ٢٣) عن أنس موقوفًا.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٠٧، ١٠٨) وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١١، ٢١٢)، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى بأسانيد ورجاله رجال الصحيح.

رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» فقلنا: لا يا رسول الله إلا أن تخبرنا. فقال للذي في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، فلا يُزاد فيه ولا يُنقص منه أبدًا»، ثم قال للذي في شماله: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار، وأسماء قبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يُزاد فيه ولا يُنقص منه أبدًا»، فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فُرغ منه؟ فقال: «سددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل»، ثم قال رسول الله ﷺ بيديه[1] فينبذهما، ثم قال: «فرغ ربكم من العباد، فريق في الجنة، وفريق في السعير»[2].

وقد روي هذا الحديث عن النبي ﷺ من وجوه متعددة. وخرّجه الطبراني من حديث علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ وزاد فيه: «صاحب الجنة مختوم له بعمل أهل الجنة، وصاحب النار مختوم له بعمل أهل النار، وإن عمل أي عمل».

وقد يسلك بأهل السعادة طريق أهل الشقاوة حتى يقال: ما أشبههم بهم بل هم منهم، وتدركهم السعادة فتستنقذهم، وقد يسلك بأهل الشقاوة طريق أهل السعادة، حتى يقال ما أشبههم بهم، بل هم منهم، وتدركهم الشقاوة، مَنْ كتبه الله في أم الكتاب لم يخرجه من الدنيا حتى يستعمله بعمل يسعده قبل موته فواق ناقة، قال: «الأعمال بخواتيمها، الأعمال بخواتيمها».

---

(١) أي: أشار.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٧) والترمذي (٢١٤١) في القدر.

وخرَّج البزار في مسنده بهذا المعنى أيضًا من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ، وفي الصحيحين عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ التقى هو والمشركون وفي أصحابه رجل لا يدع شاذة ولا فاذة[١] إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ: «هو من أهل النار»، فقال رجل من القوم: أنا صاحبه فاتبعه، فجرح الرجل جرحًا شديدًا، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه على الأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على نفسه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، وقص عليه القصة، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**» زاد البخاري في رواية: «**إنما الأعمال بالخواتيم**»[٢].

وقوله: «**فيما يبدو للناس**» إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وإن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيئ ونحو ذلك، فتلك الخصال الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت، وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره فتوجب له حسن الخاتمة.

قال عبد العزيز بن أبي رواد: حضرت رجلاً عند الموت يُلقن الشهادة: لا إله إلا الله، فقال في آخر ما قال: هو كافر بما تقول، ومات على ذلك، قال: فسألت عنه، فإذا هو مُدمن خمر.

---

(١) أي: لا يترك أحدًا، وفاذة: بمعنى شاذة، وقال المحدثون: لا يترك صغيرًا ولا كبيرًا.
(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٨٩٨)، كتاب المغازي، ومسلم رقم (١١٢) كتاب الإيمان.

وكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هي التي أوقعته.

أيا ميت القلب! إن كثيراً من الناس يفهمون الحديث السابق فهمًا سقيمًا، ويقولون: لا نعلم الخاتمة، فلذلك بدل أن تطيعه فتموت على المعصية، فإذن لا نطيعه أبداً.

اعلم أن المراد من الحديث الرجل الذي يتظاهر أمام الناس بالطاعة، لكنه في داخله منافق أو مراءٍ أو غلب عليه حب الدنيا والمعاصي، فهذا الذي تكن خاتمته سيئة.

فإن حقًّا على الله لمن أطاعه أن يُحسن بدايته، وأن يُحسن خاتمته، وأن يتولى رعايته، ولا يظلم ربك أحداً.

قال أبو محمد عبد الحق: اعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله منها- لا تكون لمن استقام ظاهره، وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به، والحمد لله، وإنما تكون لمن كان له فساد في العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله ثم العياذ بالله، أو يكون ممن كان مستقيمًا، ثم يتغير عن حاله ويخرج عن سننه، ويأخذ في طريقه، فيكون ذلك سببًا لسوء خاتمته وشؤم عاقبته، كإبليس الذي عبدَ الله فيما يروى ثمانين ألف سنة، وبلعام بن باعوراء الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها بخلوده إلى الأرض، واتباع هواه، وبرصيصا العابد الذي قال الله في حقه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ﴾ [الحشر: ١٦]، وسيأتي خبرهما في الجملة.

فالخواتيم ميراث السوابق، فكل ذلك سبق في الكتاب السابق، ومن هنا كان يشتد خوف السلف، من سوء الخواتيم، ومنهم من كان يقلق من ذكر

السوابق، وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم يقولون: بماذا يختم لنا؟ وقلوب المقربين معلقة بالسوابق يقولون: ماذا سبق لنا؟ وبكى بعض الصحابة عند موته فسُئل عن ذلك فقـال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قبض خلقه قبضتين فقال: هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار»، ولا أدري في أي القبضتين كنت؟

قال بعض السلف: ما أبكى العيون ما أبكاها الكتاب السابق. وقال سفيان لبعض الصالحين: هل أبكاك قط علم الله فيك؟ فقال له ذلك الرجل: تركني لا أفرح أبداً.

وكان سفيان يشتد قلقه من السوابق والخواتيم، فكان يبكي ويقول: أخاف أن أكون في أمر الكتاب شقيًا ويبكي ويقول: أخاف أن أُسلب الإيمان عند الموت.

وكان مالك بن دينار يقوم طول ليله قابضًا على لحيته ويقول: يا رب قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار، ففي أي الدارين منزل مالك؟

وقال حاتم الأصم: مَنْ خلا قلبه من ذكر أربعة أخطار فهو مُغتر فلا يأمن الشقاء:

الأول: خطر يوم الميثاق حين قال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي، فلا يعلم في أي الفريقين كان.

والثاني: حين خُلق في ظلمات ثلاث، فنادى الملك بالشقاوة والسعادة، ولا يدري أمِن الأشقياء هو، أم من السعداء؟

والثالث: ذكر هول المطلع، فلا يدري، أيُبشَّر برضا الله أم بسخطه؟

والرابع: يوم يصدر الناس أشتاتًا، فلا يدري أي الطريقين يُسلك به؟

وقال سهل التستري: المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر.

ومن هنا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق، ويشتد قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة، فيخرجه إلى النفاق الأكبر كما تقدم أن دسائس السوء الخفية توجب سوء الخاتمة، وكان النبي ﷺ يُكثر أن يقول في دعائه: **«يا مُقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»**، فقيل له: يا نبي الله؛ آمنا بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ فقال: **«نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل يقلبها كيف يشاء»** أخرجه أحمد والترمذي عن أنس.

وخرَّج الإمام أحمد من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ كان يكثر في دعائه أن يقول: **«يا مُقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»**، فقلت: يا رسول الله؛ أو أن القلوب لتتقلب؟ قال: **«نعم، ما من خلق الله من بني آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، فإن شاء الله عز وجل أقامه وإن شاء أزاغه»**.

فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، قالت: قلت: يا رسول الله؛ ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: **«بلى، قولي: اللهم رب النبي محمد ﷺ اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مُضلات الفتن ما أحييتني»**[1] . وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة.

وخرَّج مسلم من حديث عبد الله بن عمرو، سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣) وفيه شهر بن حوشب وهو ضعيف.

يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن عـز وجل كقلب واحد يصرفه حيث شاء»، ثم قال رسول الله ﷺ : «يا مُصرف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك[1]»[2].

* * *

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٦٥٤) .

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي البغدادي (ص٤٩-٥١) .

ذكر القبور

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢] السورة مكية، التكاثر: يعني في الدنيا حكايات عن الصالحين في الخشية من الله.

قال ميمون بن مهران: دخلت على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو يقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، فقال: إنما يزورون المقابر بالموت، ولابد لكل زائر أن يعود لوطنه من جنة أو نار.

يقول تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يقول: شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد عن ذكر الله وطاعته واللهو ما شغل. وأكثر ما يُقال في البطالة: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ بيوتكم ويقال: إن حيين من قريش تفاخرا بالأموات، قال: كان منا فلان، وكان منا فلان ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، يقول: سوف تعلمون إذا متم ﴿ثُمَّ كَلَّا﴾ يقول: ثم ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في قبوركم، وهو وعيد مع وعيد، فمعنى الأول غير معنى الثاني، وليس ذلك بتكرير.

قال الفرَّاء والكلمة قد تكررها العرب على التغليظ والتخويف، هذا بين ذلك، ثم قال: ﴿كَلَّا﴾، أي: كلا لا يؤمنون بالوعيد، ثم استأنف وقال: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ يقول: محض اليقين وهو الذي لا شك أعلمكم أنكم سترون في الجحيم الآخرة كقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦] فالتكرار في قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أي: لترونها رؤية علم ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ بالمشاهدة ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ يسألون عن شكر ما كانوا فيه من النعم والحياة والنعيم. فزعم قوم أن الآية في الكفار، وقال آخرون: بل هي على العموم في المؤمنين.

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول الله، قال: «وأنا، والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما، قوما».

فقاما معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني، فانطلق، فجاءهم بعِذق[٢] فيه بُسر وتمر رطب، فقال: كلوا وأخذ المُدْية[٣]، فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب[٤] من الشاة»، وأكلوا من ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «والذي نفسي بيده؛ لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»[٥].

قال الله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قيل معناها: ألهاكم التكاثر في الدنيا بجمع الحُطام، واكتساب الآثام، والتمادي في الإجرام، وأنشدوا:

---

(١) أخرجه البخاري عن عائشة وهو معلق عنها.

(٢) العذق: الكباسة وهي الغصن.

(٣) المدية: السكين.

(٤) الحلوب: ذات اللبن، والسؤال هنا عن النعيم سؤال تعدد النعم لا سؤال توبيخ وتعذيب. والصحابي هو: أبو الهيثم بن التيهان كما جاء عند الترمذي وغيره.

(٥) رواه مسلم، رياض الصالحين (ص١٧٥) ط دار الحديث.

أرضيت داراً لا بقاء لها ... تعدُّ الشرور وتنصب الفتنا
ما يستقيم سرور صاحبها ... حتى يعود سروره حُزنا
عجباً لها بل لموطنها ... المغرور حين يعدها وطنا
فالحمد لله اللطيف بنا ... ستر القبيح وأظهر الحسنا
ما تنقضي عنا له مِنن ... حتى يجدد بعدها مننا

يا أخي اشتغلت باللذات، وأفنيت عمرك بالترهات، وعصيت إله الأرض والسموات، ونسيت بيت الوحشة والحيرات، يا لهُ من بيت ما أظلمه؟، ومن صندوق ما أغمه؟ منزل الوحشة، وبيت الغمة والوحدة وأنشدوا:

وربما عوقص ذو صحة ... أصح ما كان لهم ولم يسقم[1]
يا واضعا للميت في قبره ... خاطبك القبر ولم تفهم

حتى زرتم المقابر في بيوت الوحشة، ومنازل الضيق والغمة في ضيق وكربات، وغم وحسرات، وأهوال مقطعات، من ظلمات القبور، وسؤال منكر ونكير، والخلود في البرزخ إلى يوم النشور، فانظر لنفسك أيها المغرور، فإن القبر له شأن يتلوه شئون، وأنشدوا:

لا تغرنك الحياة وقدم ... واحذر القبر إن للقبر شأنا
إن فيه لما يُحار ذو اللب ... إذا كان تقى ومعانا
إنني موقن بما في كتابي ... عاجلا كسوى الأكفانا
فإذا ما وضعت في ظلمة اللحد ... وبدلت من مكان مكانا
وإذا لم يدركني ربي بعفو ... ألقى في القبر ذلة وهوانا

(١) يسقم: يمرض.

القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار[١] . ألا وإنه بيت الوحدة، ألا وإنـه بيت الوحشة، ألا وإنه بيـت الدود، الله الله إخواني اعملوا لهذا الضيق، وجدوا في العمل باجتهاد وتحقيق، وأنشدوا:

كـأني بإخواني علـى حافـة القبـر ... يهيلونه[٢] فـوقي وأدمـعـهم تجري
عـفــا الله عني حين أتــرك ثاويًا ... أزار[٣] فلا أدري وأجفى[٤] فلا أدري

فانتبهوا عباد الله من نومة الغفلة، واعملوا ليوم النقلة، واستعدوا لظلمة القبر مادمتم في مسجـة ومهلة، لا تقطعوا أيامكم بالمحال، وجنبوا أعماركم سوء الفعال، فإن الموت نازل بكم، والقبر أمامكم، وأنشدوا:

إنـي أبثـك مـن حــديثي ... والحـديث لـه شـجــونُ
ضـيـعت مـوضـع مـضـجـعي ... وقت فـــفــارقني السكونُ
قـل لـي فـــأول لـيـلـة ... في القـبـر كـيف ترى أكـونُ

قيل: إنه لا يأتي على الميت في قبره أشد وأصعب من أول ليلة يبيت فيه وأنشدوا:

بــالله يــا عــينُ بــوحــي ... وابـكـي عـلـيّ ونـوحـي
غــداً أوســد قــبــري ... غــداً أزور ضــريحي
غــداً تروح الأحـبـبـة ... وتُـمـنـعـي أن تـروحـي

يا أحبابي فإذا كان لأحدكـم بيت ولم يبسط فيه على ما يجلس، جلس

---

(١) لم يصح مرفوعًا عن النبي ﷺ .
(٢) يهيلونه: يرسلونه .
(٣) أزار: يزورني الأحباب .
(٤) أجفى: من الجفاء، وهو الترك .

على التراب والأرض، كذلك من لم يقدم لقبره عملاً صالحًا لنفسه بقي مستوحشًا وحيدًا فريدًا في رمسه، وأنشدوا:

أنا في القبر رهينُ قد تبرأ الأهل مني
أسلموني بذنوبي خبتُ إن لم يعفُ عني
فارحم اليوم مشيبي وارحم اللهم سِنِّي
وارحم اللهم ضعفي لا يخيب اليوم ظني

يا أحباب تجهَّزوا لقبوركم، وكأني به ينادي عليك ويقول: يا ابن آدم الضعيف، ارحم نفسك في حياتك قبل أن تلقاني؛ لأنك إذا لقيتني وكنت عاملاً بطاعة مولاك رحمتك، ورأيت مني السرور، وإن لم ترحم نفسك لم أرحمك، أنا بيت الدود مع الندامة الطويلة، أنا بيت الوحشة مع الجوع الشديد والشدة، أنا بيت العطش مع الظلمة، أنا بيت الظلمة مع العقارب، يا ابن آدم: إياك أن تغرك الحياة الدنيا، فإن ممرك عليّ، وأنا أول منازلك إلى الآخرة، فإن نجوت مني نجوت من كل شدة تتخوف منها، يا ابن آدم أنا بيت الغضب لا أرحم شابًا لشبابه، ولا صغيرًا لصغره، ولا كهلاً[1] ولا شيخًا لكبره، ولا أرحم إلا من رحم نفسه، وأنشدوا:

عجبت لمن يتم له السرور بدارٍ كلِ ما فيه غرورُ
وكيف يُلذُّ ساكنها بعيش ويعلم أن مسكنه القبور

يا ابن آدم؛ لقد خلقت لأمر عظيم، لو كنت تعقل لظهر قنوعك ولبان خشوعك، وثارت دموعك، خوفًا من القبر ووحشته، ومن اللحد وضغطته، ومن هول المطلع وروعته، فامهد لنفسك يا مسكين، بينما أنت حي، وبينما

---

(١) من سنّه بين الثلاثين والأربعين .

يقبل منك كل شيء قبل طي الكتاب، وغلق الباب، ونزول الحجاب، والرحيل إلى التراب، وأنشدوا:

لا تأمنن وإن أمسيت في حرم إن المنايا تفاجئ كل إنسان
واسلك طريقك واثبت غير منحرف حتى تلاقي الجزا من عند رحمن
فكل خل[١] وإن أشفقت تركه وكل وإن أكثرته فان
والخير والشر مقرونان في قرن بكل ذلك يأتيك الجديدان

ففكروا رحمكم الله في أحبابكم وجيرانكم وأصحابكم وإخوانكم وآبائكم وأمهاتكم وأخواتكم والأباعد والأقارب وذوو المودة والأجانب، قد استوحشت من أنفسكم الديار، وقطعت بينهم الآثار، وبقوا رهنًا في الأجداث[٢] بالأوزار، قد هجرهم الحبيب، وبلا عنهم القريب، قد ضُيقت عليهم اللحود، وسالت عيونهم على الخدود، وتمزقت عنهم الجلود، ودبت في أجسامهم الهوام والدود، ونفيت أرواحهم في البرزخ إلى اليوم الهائل الموعود، لم ينفعهم ما جمعوا، ولا حصَّنهم ما بنوا وشيدوا، ولا منعهم كل ما صنعوا، صارت القبور لهم قرارًا، وفرت الأحباب عنهم فرارًا، فانتبهوا يا معشر الإخوان، واجتهدوا في طاعة الرحمن، من قبل مفارقة الأحباب والأوطان، وأنشدوا:

هي الأحداث تطرق أو تعاد وكل للمنية في مهاد
وما يبقى إلمام إذا يوافي شد البطش جبار القياد
فكم أسرى إلى ليث[٣] هصور وجبار من الأجناد عاد

---

(١) خل: صاحب.
(٢) الأجداث: جمع جدث وهو القبر.
(٣) ليث: أسد.

فقل لأخي السلامة عش مليًا[١] فإن الكون داعية الفساد
وكن في الغمر لقمان بعاد وهاك حمام لقمان بن عاد
فإن المرء في أيدي المنايا أسير ماله منهم فاد

* * *

العبرة بالقبور

يا أخي إذا أردت أن تدري كيف حالك من بعدك فاخرج إلى القبور، وانظرها وقد جمعت، ومثّل قبرك بين القبور، ثم انظر ماذا تحتاج إليه في قبرك، فأكثر منه لطول مُدتك فيه، وهو العمل الصالح، فإما ما سوى ذلك فمالك حاجة في شيء من أمور الدنيا، فإنه يصير عليك وبالاً في قبرك وحسرة. وانظر حالك الذي أنت عليه إن كان يصلح للموت والقبر فتمادى عليه، وإن كان لا يصلح لهذين فتب إلى الله تعالى منها، وارجع إلى ما يصلح، وأنشدوا:

كم تناسى القبور يا مغرور حفر ما بها لعاص سرورُ
وتعامى عنها وأنت تراها ورحاها على الأنام[٢] تدورُ
فاتق الله حق تقواه واحذر كل هول يخافه المقبورُ
ودع اللهو والبطالة واعمل للتي عاجلاً إليها تصيرُ
تلك دار البقاء فكل تقي في رُباها مُكرم محبورُ
وللعاصِ مُنصر إن لم تنله رحمة الله مبعد مثبور[٣]

---

(١) طويلاً .

(٢) الأنام: الخلق .

(٣) مثبور: هالك .

دعاء لأهل القبور

كان بعض الخائفين إذا خرج إلى القبور لا ترفأ[1] دمعته، ولا يأكل، ولا يشرب، ثلاثة أيام، ويقول: ترى يا أحبابي ما لقيتم في بيت الحسرات، آنس الله غربتكم، ورحم الله وحشتكم، وبرّد الله مضاجعكم، وهوّن ما قدر عليكم مولاكم إنه سميع قريب، نعم المولى ونعم النصير، ثم يأخذ في البكاء والنحيب، فالله الله، ابكوا قبل أيام البكاء، واندبوا قبل يوم الأسى، وأنشدوا:

لاه بدنياه والأيام تنعاهُ ... والقبر غايته واللحد مأواهُ
يلهو ولو كان يدري ما أعدّ له ... إذًا لأحزنه ما كان ألهاهُ
أو ما جنت يده لو قد تعرفه ... ويلاه مما جنت كفاه ويلاهُ

اعلموا عباد الله أن القبور على الأموت توابيت مقفولة، والأعمال في أعناقهم قلائد مجعولة، وأرواحهم بالغداة والعشي إلى الجنة أو النار محمولة، وأنشدوا:

يا أيها الرجل المزخرف قبرهُ ... ولعلهُ في جوفه مغلولُ
يا أيها الرجل المقيمُ بمنزل ... فيه الحوادث ما أقامه نزولُ
ألا يغرك ملكه ونعيمه ... فالملك يفنى والنعيم يزولُ
وإذا حملت إلى القبور جنازة ... فاعلم بأنك بعدها محمولُ

يا إخواننا مضى الإخوان، ونحن على آثارهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، قد عميت أبصارنا عن حقائق الأمور، وغفلنا عن الحساب، ونسينا القبور .

---

(١) ترفأ: تجف .

حكاية عن الأصمعي

حكي عن الأصمعي أنه قال: مررت بأعرابي وهو واقف على مقبرة فقلت له: يا أخا العرب، ما هذا الموضع الذي أنت فيه؟ فقال:

هذي منازل أقوام عهدتهم ... في رغد عيشٍ نفيسٍ ما له خطرُ
صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا ... إلى القبور فلا عينٌ ولا أثرُ

عباد الله: من كان مصيره إلى القبر ما للفرح إليه سبيل، ولبيان حال القبر يناديه كل يوم يقول له: لابد مني، فماذا قدمت لي من عمل صالح؟ وأنشدوا:

أجار الدهر ليس له جوازٌ ... وحسن الظن بالدنيا اغترارُ
إذا ما رمت يومًا كان يوما ... ونقص البدر غايته السرارُ
ودع حرص الجبان على حياة ... وأجمل إن عمرك مستعارُ
وذو الأموال منها في غمارٍ ... وعند الموت ينكشف الغمارُ
ويرجو المرء أن يبقى سليما ... ويأبى الليل ذلك والنهارُ
وهل تخطي المنية نفس حي ... وهاديها رواح وابتكارُ

* * *

حكاية عن الحسين

قيل كان الحسين رضي الله عنه إذا رأى القبور قال: ما أحسن ظواهرها، وإنما الدواهي في بطونها، فالله الله عباد الله، لا تشتغلوا بالدنيا، فإن القبر بيت العمل، وأنشدوا:

يا من بدنياه اشتغل ... وغره طولُ الأمل

الموت يأتي بغتة ... والقبرُ صندوق العمل

أخي: لو رأيت الميت في قبره بعد ثلاثة أيام لاستوحشت من فقده بعد طول الأنس بناحيته، ولو رأيت كيف تجول الهوام، ويجري فيه الصديد، وتخرقه الديدان، مع تغير الريح وبلاء الأجفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح، ونقاء الثوب، وأنشدوا:

باتوا على قلل الجبال[1] تحرسهم ... غُلب الرجالُ فلم تنفعهم القللُ
واستنزلوا من أعالي عز معقلهم ... وأُسكنوا حفراً يا بئس ما سكنوا
ناداهم صارخ من بعد ما دفنوا ... أين الأسرَّة والتيجان والحللُ
أين الوجوه التي كانت مُحجبة ... من دونها تضرب الأستاذ والكللُ
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتلُ
قد طال ما أكلوا دهراً وما تعموا ... فأصبح بعد طول الأكل قد أكلوا

فيا معشر الشباب، تأهبوا للغدو إلى التراب، وأنشدوا:

ما للشيوخ وللغد ... وإلى الملاهي والبكور
وهم غداً أو قبله ... أو بعده حشر القبور

* * *

نداء القبر لساكنيه

عباد الله ما من أحد لا مؤمن ولا فاجر إلا وقبره يناديه بكرة وعشية إما بالبشرى والسرور، فمَن فكر فيه وفي وحشته وضيقه وغمته، كان عليه أوسع من الدنيا وأفرج منها، وأبدله الله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من

(١) قلل الجبال: قممها وأعاليها .

أهله، وجعل القبر خيراً من داره، فأكثروا ذكره في الآناء والأوقات، وأطيعوا جبار الأرضين والسموات، عساه يجعله لكم روضة من رياض الجنات، ويقيكم الذل والحسرات، وأنشدوا:

قف بالمقابر واذكر إن وقفت بها ... لله دَرك ماذا تستر الحفرُ

ففيهم لك يا مغرور موعظة ... وفيهم لك يا مغرور معتبرُ

كانوا ملوكًا تواريهم[1] قصورهم ... دهراً فوارتهم من بعدها الحفرُ

الدود يأكل أقوامًا منعمة ... نعم ومن دونها اللواح والمددُ

أن رضاه ذاك عنهم أم على سخط ... هيهات ضلت وحارت فيهم الفكرُ

يُحكى عن بكر بن حماد رحمه الله أنه خرج يومًا إلى القبور، وجعل ينظر إلى امتداد القبور، ويفكر في الأحباب والإخوان، والأصحاب والجيران، ثم بكى حتى طال بكاؤه، وبلت دموعه لحيته، ثم جعل يقول:

زرنا منازل قوم لا يزورونا ... إنا لفي غفلة عما يقاسونا

لو ينطقون لقالوا الجدَّ ويحكم ... جدا الرحيل فقد آوى المقيمونا

الموت أحدق بالدنيا وعزتها ... وفعلنا فعل قوم لا يموتونا

فابكوا كثيراً فقد حق البكاء لكمُ ... فالحاملون لعرش الله باكونا

فالله الله، جدوا في العمل، فإن القبر أمامكم، والموت يطلبكم يفرق ما جمعتم، ويخرب ما بنيتم بقطع الأنفس، وينقلكم إلى ضيق اللحود والأرماس[2] ، فمن قدم إلى القبر عملاً صالحًا وجده روضة من رياض الجنان، ومن لم يكن له عمل وجده حفرة من حفر النيران، فاستعدوا له يا

---

(١) تواريهم: تخفيهم وتسترهم.

(٢) الأرماس: القبور.

معشر الأصحاب.

عباد الله، ارحموا أنفسكم قبل نزول العذاب، فإن القبر لا يرحم من ليس له عمل، ولا يشفق على من غره طول الأمل، ولا يحن على من ضيع أيام المهل، فأنشدوا:

ما حال من سكن الثرى[1] ما حاله ... أمسى وقد صرمت هناك حباله[2]

أضحى وقد درست[3] محاسن وجهه ... وتفرقت في قبره أوصاله[4]

واستبدلت منه المحاسن يده ... وتقسمت من بعده أوصاله[5]

ما زالت الأيام تلعب بالفتى ... والمال يذهب صفوه وحلاله

* * *

عيسى والمدينة الخربة

روي أن عيسى بن مريم عليه السلام دخل مدينة خربة، فدخل قصراً من قصورها، فنادى: يا خراب الآخرين أين أهلك؟ فأجابه شيء من آخر القصر: يا ابن مريم بادوا فاجتهد ولا تفرط، فإن العظام قد بليت، وبقيت أعمارهم في رقابهم، وأنشدوا:

قف بالقبور وقل على ساحتها ... من منكم المغمور في ظلماتها

ومن المكرَّم منكم في قفرها ... قد ذاق الأمن من روعاتها

---

(١) الثرى: التراب.

(٢) صرمت حباله: تقطعت وتهتكت.

(٣) درست: فنيت وبليت. من دُرس الثوب: إذا بُلي.

(٤) أوصاله: عروقه.

(٥) أوصاله: معناه هنا أمواله وإرثه.

أما السكون لدى العيون فواحد | لا يستبين الفضل في درجاتها[1]
لو جاوبوك لأخبروك بألسنٍ | تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيعُ فنازلٌ في روضة | يقضي إلى ما شاء من راحاتها
والمجرم الطاغي بها متقلبٌ | في حفرةٍ يأوي إلى حياتها
وعقارب تسعى إليه فروحه | في شدة التعذيب من لدغاتها

عباد الله ما لكم لا تفيقون من غفلتكم، وتنتبهون من نوماتكم، وتصحون من سكراتكم، وتملُّون من شهواتكم، وتدعون الكثير من لذاتكم، وتذكرون هول المقابر، والمصير إلى ضيق الحفائر، فإن ملك الموت لا يأتيكم إلا على ألذ ما تكونون من طيب عيشكم، ولذة دنياكم، فبادروا قبل مبادرته بكم، وأنشدوا:

بناء الفتى في لهوه وعنائه | متبختر يختال في لذاتهِ
قد غره الأمل الكذوب | فهمه في كل ما يدنيهُ[2] من شهواتهِ
إذا جاءه ملك النفوس لسكرة | تركه ملقى الجسم بين ثقاتهِ
فتقطعت أسبابه وتحرمت | وتنكر المعروف في حالاتهِ
لا يستجيب لمن دعاه ولا يرى | شق الجيوب عليه حين وفاتهِ

ذُكِرَ في بعض الأخبار أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم قتل فقال: أبشر يا أمير المؤمنين، قال: بماذا؟ قال: آمنت برسول الله ﷺ حين كفر به الناس، وجاهدت مع رسول الله ﷺ حين خذله الناس، ومات رسول الله ﷺ وهو عنك راض، ولم

---

(١) درجاتها: أي كلهم سواسية .

(٢) يُدنيه: يقربه .

يختلف في خلافتك اثنان، وقتلت شهيداً، فقال عمر رضي الله عنه: أعد عليّ ما قلت، فأعاد عليه فقال[1] :والذي لا إله غيره، لو أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت لافتديت به من هول المطلع، فإذا كان هذا قول عمر رضي الله عنه إمام السنة، وحبيب الأمة، وسراج أهل الجنة في الجنة، قال هذا عند الفراق والانقطاع، وأشفق من هول المطلع، فكيف بأهل اللهو واللعب، والبهتان والكذب، أمثالنا الذين قطعوا أعمارهم في الذنوب، وأفنوا أيامهم في معصية علام الغيوب، وغفلوا عن القبور، ولم يتفكروا في هول يوم النشور، وأنشدوا:

أراني كل يوم في انتقاص ... وبعد لا يزولُ وطول هجرِ
وأيام عمري بغير شيء ... وعمر المرء في الأيام يسري
ألا خطوا عملي قبري كتابًا ... وقولوا قبر ذي ظلم وغدر
أتى الدنيا وفارقها فقيراً ... وكل فتى على ذي النهج يجري
وقولوا حين أدفن أي عبد ... أتى مولاه في ذل وفقرِ

حكي عن داود الطائي أنه مر على امرأة تبكي على قبر وهي تقول:

عدمت الحياة ولا نلتها ... إذا أنت في القبر قد ألحدوكا
فكيف أذوق لذيذ الكرى ... وأنت بيمناك قد وسدوكا

قال داود: فلما سمعت تذكرت في الأحباب والأخدان[2]، والأصحاب، لا يرى لهم آثار، ولا على الأرض منهم ديار .

---

(١) يمكن مراجعة طبقات ابن سعد عند ترجمة عمر رضي الله عنه، وكذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمحمد رشيد رضا، وللإمام ابن الجوزي .

(٢) الأخدان: العاشقون .

أمر على القبور وأرتقبها كأني ليس لي فيها حبيبُ
وأكره أن أسائلها فإني أراها حين تسأل لا تجيب

عباد الله ما مضى من مضى إلى القبور الخالية من الأمم الخالية لتبقوا إلا النذر اليسير الذي بقي من أعماركم، ثم تنتهون إلى القبور، وتخرجون من سعة القصور والدور، والحمد لله يا معشر المؤمنين، وجماعة إخواني المسلمين، جدوا واجتهدوا، وبالعمل الصالح فاستعدوا، وقدموا لأنفسكم ما تجدوه في المقابر، وابكوا عليها قبل حلولها في الحفائر، وأنشدوا:

لكل أناس مقبر بفنائهم حتى يواري جسمه في رمسهِ
وفي محشر الموتى أمام قبورهم ومقدم يلقى الردى في نفسهِ

وأنشدوا:

المرء رهن مصائب لا تنتهي فهم في انتقاض والقبور تزيدُ
فمؤخر يلقى الردى في أهله فما منهم من للحياة يعودُ

تذكر أيها المغرور أباك وإخوانك، وتذكر أهلك وجيرانك، وتذكر أحبابك وإخوانك، أين الذين كانوا لك في الدنيا أحبابًا، وفي أيام حياتك أصحابًا؟ صحبتهم وصحبوك، وذهبوا عنك وتركوك، وأوحشوا الأهل والأحباب، وفارقوا القرابة والأصحاب، قد ضمت أجسامهم المقابر، وغيرت أبشارهم[1] الحفائر، وبقيت أرواحهم تنتظر يومًا تُبلى فيه السرائر، فمنهم من يجازى بنعيم وخلود، ومنهم من يُرد الوِرد وبئس الورد المورود، أين لقمان ابن عاد؟ أين ثمود وشداد؟ أين فرعون ذي الأوتاد؟ وأين من طغى في البلاد، وأظهر فيها الفساد؟ ذهبت[2] والله تلك الأجناد، وصاروا إلى ظلمة

(١) أبشارهم: جمع بشرة أي الجلد .
(٢) ذهبت: هلكت .

القبور على غير مهاد ولا وساد، تذكر أيها الغافل أين الملوك والأكاسرة، وأين الطغاة الجبابرة؟ وأين الذين جمعوا الأموال والذخائر، وقادوا الجيوش الحفائر؟ وبقوا مرتهنين بأعمالهم في ظلمات المقابر، ونزلوا على ما قدموا بأعمالهم في ظلمات المقابر، نزلوا على ما قدموا من ذخائر الأعمال، قد قطعت الديدان أوصالهم، وغير البلاء أحوالهم، قد سالت العيون منهم على الخدود، وصارت لحومهم قوتًا للهوام والدود، وقسمت من بعد دفنهم في التراب أموالهم، ونكحت من بعدهم عيالهم، وأنشدوا:

هل كان قبلك للذات مرتاحا ... لو شقة ذكر ذنب قد مضى ناحا
لله عبد جنى ذنبا فأحزنه ... وظل حيرانًا يُذري الدمع سفاحا[1]
فاسفح دموعك عن ذنب أصبت ... به فرُبَّ دمع جرى للخير مفتاحا
ورُبَّ عين رآها الله باكية ... خوف القبور ستلقى الروح والراحا
مستعير قلق مستيقظ فطن ... كأن في قلبه للنور مصباحا
يا صاحبي دعا التسويف ويحكما ... واستبدلا بفساد الدين إصلاحا
لا تأمنن وقع الموت إن له ... لأنفسنا من جميع الخلق مُجتاحًا
إن لم يبيتهم دعاهم سحرا[2] ... وإن تأخر عن تبكيرهم راحا
لا يترك الموت بيتًا حشوه فرح ... إلا أعاضهم ذلاً وأتراحا[3]
أهل القبور أبينوا عن قبوركم ... هل تستطيعون لي بالرد إفصاحا
ماذا لقيتم وماذا بعد قيل لكم ... لما فقدتم من الأجساد أرواحا
يعزز عليّ بأبدان منعمة ... أمسى بها الدود جوالاً وسواحا
الناس في غفلة عما يُراد بهم ... من كان ذا بصر فالصبح قد لاحا

(١) سفاحًا: مسفوحًا .
(٢) السحر: السدس الأخير من الليل .
(٣) الأتراح: الأحزان .

حكاية عن ابن السماك

حكي عن ابن السماك رحمه الله أنه حضر يومًا جنازة، فلما نظر إلى القبور بكى وقال لأصحابه: معشر الإخوان، ألا متأهب لموت يوصف له ويراه أمامه، ألا مستعد ليوم فقره ونزوله إلى حفرته وقبره، ألا شاب عازم قد برز لمنيته، ألا من ليس يُغيره شبابه متنه ولا شدة قوته، ألا شيخ قد بادر لانقضاء مدته، فشمَّر السير فيما بقي ممن رمقه، فماذا ينتظر من دفن أباه، وقبر أمه وأخاه؟ ما فرح من القبر مأواه، والتراب فراشه وغطاه. وأنشدوا:

ألا إن غدًا انقلب عنه وزال ... وبينا الفتى فيها مهاب مُسودُ
نعيمها ما الدنيا بلاء وفتنة ... فأصبح من تراب القبور يمهدُ
فكن خائفًا للموت والقبر بعده ... ولا تك ممَّن غرَّهُ اليوم أو غدُ

حكي عن بعض الصالحين رحمه الله أنه قال: دخلت على مريض وهو في شدة السكرات، فقلت له: كيف تجدك؟ فبكى ثم قال:

رحلت عن الدنيا وقامت قيامتي ... غداة أقل الحاملون جنازتي
وعجل أهلي حفر قبري وصيروا ... خروجي وتعجيلي إليه كرامتي
كأنهم لم يعرفوا قط صُورتي ... غداة أتى يومي علي وساعتي

إخواني، اما هذا لمن مضى، بل والله لمن مضى ولمن بقي، لابد من القبر ووحشته، ومن القبر وسكرته، فانظروا لأنفسكم ما دام النظر ينفعكم، وتفكروا في وحشة الموت ما دام التفكير يُباح لكم من قبل وقوع السكرة، وزوال الحسرة، وحيث لا تُقال العثرة، فإن الأيام غرور، وهي طريق إلى القبور، وأنشدوا:

ما للمقابر لا تجيب إذا دعاهن اللبيبُ
حفر يستر فوقهن من الجنادل[1] والكثيبُ
فيهن أطفالٌ وولدانٌ وشبانٌ وشيبُ
كم من حميم لم يكن نفسي بفرقته تطيبُ
غادرته في بعضهن مجندلاً وهو الحبيبُ

* * *

حكاية عن بعض الصالحين

حكي أن رجلاً من الصالحين رحمه الله حضر جنازة، فلما وضعوها في قبرها وانصرف أهلها، وقف على قبر صديق له فناداه: يا حبيب يا فلان الصديق، فلم يُجبه أحد، فأنشد يقول:

أحبيب ما لك لا تجيب مناديا أنسيت بعدي جملة الأحبابِ
فأجابه مجيب يسمع صوته ولا يرى شخصه وهو يقول

قال الحبيب وكيف لي بجوابكم؟ وأنا رهين جنادل وتراب
أكل التراب محاسني ونسيتم وحُجبتُ عن أهلي وعن أحبابي
فعليكم مني السلام تقطعت منّي ومنكم عقدة الأنسابِ[2]

يا مسكين فهذه صفتكم، وصفة إخوانكم وأحبابكم وجيرانكم وأصحابكم، فاعتبروا بهم وعظوا أنفسكم وابكوا طول حياتكم، أيام وحشتكم، وبعد رقدتكم، وطول غربتكم وانفرادكم في قبوركم ووحدتكم،

(١) الصخور .
(٢) انقطعت الأنساب بيننا ..

فعسى الله مولاكم أن يرحمكم فيؤنسكم فيها بأنس كرامته، وينوّرها بنور مغفرته، ويجعلها لكم أول منزلة من منازل الجنة، وينجيكم فيها من كل عذاب ومحنة، إنه المنان الكريم المتفضل الرحيم.

فأرحم ما يكون المولى جل جلاله بعبده إذا دخل قبره، وتفرق الناس وأهله، فمن أكثر من ذكره وجده روضة من رياض الجنة.

وكأنه ما من يوم إلا والأرض تنادي بخمس كلمات: يا ابن آدم تمشي على ظهري ومصيرك إلى بطني، يا ابن آدم تضحك على ظهري، وسوف تبكي في بطني، يا ابن آدم تفرح على ظهري، وسوف تحزن في بطني، يا ابن آدم تُذنب على ظهري، وسوف تُعذب في بطني، يا ابن آدم تأكل الحرام على ظهري، وسوف يأكلك الدود في بطني، كم من محسود في حياته يود إذا نزل في حفرته لو كان كل ما جمعه وخلفه لأعدائه وحسّاده، فكم من تارك لعياله ما يصلحهم لمعادهم هو في قبره أو في رمسه مثبوراً، وأنشدوا:

أخلق الموت جبستي ... ومعا حُسنى البلا
صرت بين النعيم في ... منازل البعد والقلى[1]
وجفاني أحبتي ... وغُيبت في الفلا[2]

يا أخي تفكر في تلك الأكفان، وتغير الروائح، وصولة الديدان، ونهش العقارب والحيات، والبقاء تحت أطباق الثرى والظلمات، وانظروا إلى أحبابكم في بسيط الأرماس، كيف عُدموا الأُناس والحُرَّاس، وانقطعت عنهم الحركات وسكنت منهم الأنفاس، وأنشدوا:

---

(١) القلى: البُغض والجفاء.

(٢) الفلاة: الصحراء، وأراد القبر.

أتعمى الدنيا وأنت بصيرُ وتجهل ما فيها وأنت خبيرُ
وتصبح تبنيها وأنت خالدٌ لقد كان فيما قد بلوت[١] نذير
متى أبصرت عيناك أمر ولم يكن يخبرنا أن البقاء يسيرُ
فدونك[٢] فاصنع ما أنت صانع فإن بيوت المتقين قبورُ

يحكى عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه نظر إلى جنازة قد وضعت في لحدها فقال: يا لها من موعظة بليغة، لو صادفت قلوبًا حية، والله لقد فضح الموت الدنيا، ولم يترك فيها لذي نسب فرحًا، ثم أشار إلى امتداد القبور فبكى، وقال: هؤلاء أهل محلة قد كفى ممن جلس إليهم شرهم، وإن ترحم عبد عليهم وصل إليهم مما ترحم به.

عباد الله؛ اعلموا أن القبور منزلة بين الدنيا والآخرة، فاعملوا لمثل هذا اليوم، فإنما هم إخوانكم تقدَّموا وأنتم في الأثر، أيها المتخلف من بعد أخيه، أنت الميت من بعده غدًا، والباقي بعدك هو الميت في أثرك، الأول فالأول حتى يتوفوا جميعًا، فكأنا بكم قد عمكم الموت، واستويتم جميعًا في سكراته، وحللتم جميعًا في القبور إلى يوم النشور، فالله الله، تفكروا في طول البلاء في ظلمات في أطباق الثرى. وأنشدوا:

أخي ما بال قلبك ليس ينقى كأنك لا تظن الموت حقا
أيا ابن الذين فنوا وبادوا أما والله ما بادوا وتبقى
وما أحد بزادك منك أحصى وما أحد بزادك منك أشقى
وما للنفس عندك مستقر إذا ما استكملت أجلاً ورزقا

---

(١) بلوت: من ابتلاء أي اختبرت.
(٢) دونك: خذه اسم فعل أمر.

تفكروا في الملوك العُتاة، والجبابرة والطغاة، الذين عمَّروا الدنيا، وملكوا أقطارها، وسكنوا المشيد من قصورها، كانوا أشد منكم قوة وآثارًا، وأقوى أجسامًا وأطول أعماراً، خلفوا ما كسبوا للأهل والأحباب، وعمر ديارهم من بعدهم الأصحاب، وانصرم عنهم الليل والنهار، ونزلوا على ما عملوا من الأوزار، فلو أبصرتموهم بعد قليل في ظلمات القبور، وقد تقطعت منهم الجلود، وتمزقت الخدود، وضيقت على أبدانهم اللحود، واتخذ الخليل من بعدهم خليلاً، وصارت أبدانهم مقيلاً، فتفكر يا أخي، وكن إلى التوبة متسرعًا عجولاً، ولا تطع الشيطان إنه كان للإنسان خذولاً، وكونوا أولياء الرحمن، ولا تكونوا أولياء الشيطان، فعسى الله أن ينجيكم من عذاب النيران، ويدخلكم برحمته الجنان، وأنشدوا:

اعمل لمثواك في الضريح ... واندم على فعلك القبيح
ولا تُقصِّر وفيك روحٌ ... فسوف تبقى بغير روحِ
واقرح[1] الخد من دموع ... بالجد من قلبك القريح
والتمس الصفح قبل يوم ... تنقل فيه إلى الصفيح[2]
يا نفس إني غداً طريحٌ ... والترب يُحثى على الطريح
نوجي فلو قد حواك قبر ... لم تقدري أن تنوحي

أحبابي قوموا بنا إلى الحُزن والبكاء، وإلى طول الأسف والأسى، لعل الله يرحمنا في ظلمات القبر وعسى، فإن القبر يُنادي في الصباح والمسا.

---

(١) القرح: الجرح .

(٢) الصفيح: صخور القبر .

وقف بعض الصالحين في المقابر وأنشأ يقول:

أغضابٌ أحبابنا أم رقودُ ... فإلى كم يكونُ هذا الصدودُ
إن تكونوا نيامًا فهبوا ... كم تناموا عنا ونحن قُعودُ
أو تكونوا هجرتمونا بذنبٍ ... كان منا فإننا لا نعودُ

حكي عن بعضهم رضي الله عنه أنه قال: مات لي صديق، فاغتممت عليه لما كان فيه من الصلاح والخير، وحسن الطريقة، فرأيته بعد موته في المنام، فسألته عن حاله، وأنشأ يقول:

أنا لكم إخواني نذيرُ ... من هول ما ضمت القبورُ
عاينت[1] ما لم تعاينوه ... وإنما يبتلى الخبيرُ
إن الذي حلّ بي جليل ... جدًا فقد أعذر النذيرُ
فإنما أنت في غرور ... فلا يغرنك الغرور[2]
فإن قُدَّامك[3] المنايا ... والقبرُ والبعثُ والنشورُ
إما إلى جنة وإما ... إلى جحيمٍ لها سعيرُ

فالله الله يا معشر المسلمين، انتبهوا من ثقل هذا المنام، إن أمامك وحشة القبور، وسكرات هول الحمام، فمن ضيع في البطالة والجهالة أيامه، وكثرت في صحيفته أوزاره وآلامه، فمقام الحسرة غدًا في القبر مقامه، وأنشدوا:

أبصر وتب يا رجل ... قد أزف التنقلْ
إلى محل ضيق ... تذهب فيه الحيلْ

---

(١) رأى بعينه .
(٢) الشيطان .
(٣) قدامك: أمامك .

مـا لـك فـيـه مـؤنس إلا التـقى والعـمـلْ

أي غـلام قـام فـي مـحـرابه يبـتـهلْ(١)

يقـول في سـجـدته ودمـعـه ينهـمـلْ

يـا ظـاهـر يـا بـاطـن يـا مـالـك لا تـعـجلْ

اغـفـر ذنوبي كلـهـا فـشـأنـك التـفـضلْ

وتُـب عـلـيّ تـوبـةً فـهـي المُنى والأملْ

هذا رجل كان يدخل القبور فيقول: سلام عليكم أهل مضايف اللحود، ومطعم البلاد والدود، ما أبعد سفركم، وما أوحش طريقكم، فليت شعري(٢) ما حالكم ارتهنتم بأعمالكم، وقطعتم دون آمالكم، بل ليت شعري أقدم الحياة حل بكم، أم فرح البشرى بالقدوم على ربكم سبقتمونا فلبيتم، أجبتم قبلنا إذا دعيتم، ونحن للقدوم عليكم منتظرون، وللمنهل الذي ورد واردون، فبارك الله لنا ولكم على القدوم عليه، ورحمنا إذا صرنا إلى ما صرتم إليه، ثم نزل في قبره فحفره لنفسه، فوضع خده على شفير اللحد، وجعل ينادي: يا ويلتى إذا دخلت في قبري وحدي، ونطقت الأرض من تحتي فتقول لي: لا مرحبًا ولا أهلاً، ولا سعة ولا سهلاً بمن كنت أمقته وهو على ظهري، فكيف وقد صرت اليوم في بطني، لأضيقن عليك أرجائي، ولأذيقنك مكروه بلائي، ويلي إذا خرجت من لحدي حاملاً وزري على ظهري وقد تبرأ مني أبي وأمي، بل ويلي من طول كذبي، إذا أسمعني منادي ربي: أين فلان بن فلان؟ فأبرزت(٣) من بين جيراني، وقد بدت إلى الناس

---

(١) من الابتهال: وهو التضرع والدعاء .

(٢) فليت شعري: ما حالي .

(٣) ظهرت .

سريرتي، وقـمت عريانًا ذليلاً، وقـاسيت كـربًا طويلاً، ثم أساق إلى أرض القيامة للعرض والوقوف بين يـدي جبار السموات والأرض، ويلي إذا وقفت أمام ربي فقال لي: عبدي استترت بمعصيتي عن المخلوقين، وبارزتني بها وأنا عليك من أكبـر الشاهدين، أفكنت عليك من أهون النـاظرين إليك؟ ثم خر مغشيًّا عليه، فلما أفاق رفع رأسه إلى السمـاء فقال: يا ذخري ويا ذخيري، ومن هو أعلم بطويتي وسريرتي، يا من عليه اعتـمادي في حياتي، ومن إليه ألجأ بعد مماتي، لا تخذلني بعد الموت، ولا توحشني في قبري، يا سامع كل صوت، وأنشدوا:

قف بنـا بالقـبـــور نبكـي طويلا ونداوي بـالدمـع داءً جلـيـــــلا
فــعـــسى الدمـع أن يُبـردِّ مـنا بعض لوعـاتنا ويشـفي الخليـلا
ونـنادي الأحـبـاب كـيف وجـدتم سكـرة الموت والمـقـــيــــلا
لو أطاقـوا الجـواب قـالوا وجـدنا سكرة تـتـرك العــزيز ذليــلا
بُدِّلوا بعـد القـصـور قـبـورا ثم بعـد الـلبس ردمـا ثقـيـلاً

القبر قبل فوات العمل، وبادروا بالتوبة قبل انقضاء الأجل، وأشعلوا في قلوبكم نيران الخوف والوجل[١]، وتزودوا للقبر بينا أنتم في فـسحة ومهل، فـإن الموت آت، والعمـر فات، والطريق طـويل، والزاد قليل، وهول هائل ثقيل، وأنشدوا:

تـضـــــرع في دجـى الـليـل إلـى مـــولاك يـكفـــيكـا
ولا تـأمـن هجـــــوم المـوت إن المـوت يـــأتـيـــكـا
كـــأنـك بالـذي يـهـــواك فـي القــبــــر يدليكـا[٢]

---

(١) الخوف .
(٢) يُنزلك .

وقد أردت في لحدك | فرداً بمساويكا[1]
فيا سؤلي ويا ذخري | وكل الخلق راجيكا
ويا من ليس منا أحد | يُحصي أياديكا[2]
تجاوزْ عن مقالِ | ثم حققْ أملي فيكا

يا أخي، قم بين يدي مولاك، إذا دخل الليل البهيم، واسأله لعله يكفيك في قبرك العذاب الأليم.

* * *

حكاية عن ابن الأسود

حُكي عن الحجاج بن الأسود أنه قال: رأيت في المنام كأني دخلت في المقابر، فإذا أهلها نيام في قبورهم، ومنهم النائم على القباطي، ومنه النائم على السُّندس، ومنهم النائم على الإستبرق، ومنهم النائم على الحرير، ومنهم النائم على الديباج، ومنهم النائم على الياسمين والريحان، ومنهم النائم كالمُبتسم في نومه حائل النوم، ومنهم من قد أشرق نوره، ومنهم من قد اشتد كربه، ومنهم من قد اغتم في ضيق القبر ووحشته، فبكيت في منامي مما رأيت، ثم قلت: يا رب لو شئت سويت بينهم في الكرامة، فنادى مُنادٍ من بينهم: يا حجاج، هذا الذي تراه من تفاضل الأحوال، إنما هي منازل الأعمال، ولكل امرئٍ منهم ما قدَّم، فاستيقظت فزعًا مرعوبًا، وأنشدوا:

تحرك إن قدرت وقم طويلا | فسوف يطول نومه في الترابِ

---

(١) مساويكا: سيئاتك .

(٢) أياديكا: نعمك .

حقق ما تقول فأنت عبد تسأل ثم تلب الجواب
وكفّر ما عملت وكن مُجدا وتب إلى الله تسعد بالمتاب

عباد الله ليس لكم دواء من جميع أمراض الشهوات إلا بالتوبة والندم على ما سلف وحسن الأوبة، لعل الله يغفر لكم ما عقدتم عليه من الضمائر وما طويتم عليه خفيات السرائر، وينور لكم في ظلمات الأجداث[1] .

* * *

(١) الأجداث: القبور .

وختامًا نقول

ليس الغريب غريب الشام واليمن ... إن الغريب غريب اللحد والكفن

إن الغريب له حق لغربته ... على المقيمين في الأوطان والسكن

لا تنهرن غريبًا حال غربته ... الدهر ينهزه بالذل والمحن

سفري بعيد وزادي لن يبلغني ... وقوتي ضعفت والموت يطلبني

ولي بقايا ذنوب لست أعلمها ... الله يعلمها في السر والعلن

ما أحلم الله عني حيث أمهلني ... وقد تماديت في ذنبي ويسترني

وأنا الذي أغلق الأبواب مجتهدًا ... على المعاصي وعين الله تنظرني

يا زلة كتبت في غفلة ذهبت ... يا حسرة بقيت في القلب تقتلني

دع عنك عزلي يا من كنت تعزلني ... لو كنت تعلم ما بي كنت تعذرني

دعني أنوح على نفسي وأندبها ... وأقطع الدهر في التفكير والحزن

دعني أسحُّ دموعًا لا انقطاع لها ... فهل عسى عَبْرة منها تخلصني

كأنني بين الأهل منطرح ... على الفراش وأيديهم تقلبني

وقد تجمع حولي من ينوح ومن ... يبكي عليَّ وينعاني ويندبني

وقد أتوا بطبيب كي يعالجني ... فلم أر الطبيب اليوم ينفعني

واشتد نزعي وصار الموت يجذبها ... من كل عرق بلا رمق ولا هون

واستخرج الروح مني في تغرغرها ... وصار ريقي مريرًا حين غرغرني

وسل روحي وصار الجسم منطرحا ... على الفراش وأيديهم تقلبني

وأغمضوني وراح الكل وانصرفوا ... بعد الإياس وجدُّوا في شِرا الكفن

وقام من كان أحب الناس في عجل ... نحو المُغَسِّل يأتيني يغسلني

وقالوا: يا قوم نبغي غاسلاً حذقًا ... حُرًّا غريبًا أديبًا عارفًا فطن

وجاءني رجل منهم فجردني ... من الثياب وأعراني وأفردني

وأطرحوني على الألواح منفرداً وصار فوقي خرير الماء ينظفني
وأسكب الماء من فوقي وغسلني غسلاً ثلاثًا ونادى القوم بالكفن
وألبسوني ثيابًا لا كمام لها وصار زادي حنوطي حين حنطني
وأخرجوني من الدنيا فوا أسفا على رحيلي بلا زاد يبلغني
وقدموني إلى المحراب وانصرفوا خلف الإمام فصلى ثم ودَّعني
صلوا عليّ صلاة لا ركوع لها ولا سجود لعل الله يرحمني
وحملوني على الأكتاف أربعة من الرجال وخلفي من يشيعني
وأنزلوني إلى قبري على مهل وقدَّموا واحداً منهم يلحدني
وكاشف الثوب عن وجهي لينظرني وأسبل الدمع من عينيه أغرقني
فقام محتزنًا بالعزم مُشْتَمِلاً وصفَّ اللَّبِن من فوقي وفارقني
وقال هلوا عليه التراب واغتنموا حسن ثواب من الرحمن ذي المنن
في ظلمة القبر أم هناك ولا أبٌ شفيع ولا أخ يؤنسني
وهالني صورة في العين إذا نظرت من هول مَطْلع إن كان أدهشني
من مُنكر ونكير ما أقول لهم هالني منظر منهم فأفْجَعني
وأقعدوني وجدوا في سؤلهم ما لي سواك إلهي من يخلصني
فامننَّ عليَّ بعفوٍ منك يا أملي فإنني موثق بالذنب مرتهن
وتقاسم الأهل مالي من بعد ما انصرفوا وصار وزري على ظهري فأثقلني
واستبدلت زوجي بعلاً لها بدلي وحكَّمته على الأموال والسكنِ
وصيرت ولدي عبداً لخدمتها وصار مالي حلاًّ لهم بلا ثمنِ
فلا تغرنك الدنيا وزينتها وانظر إلى فعلها في الأهلِ والوطنِ
وانظر لمن حوى الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطنِ والكفنِ
خذ القناعة دنياك وارض بها لو لم يكن لك إلا راحة البدنِ
وازرع الخير تحصد بعده ثمرا وزارع الشر موقوف على الهونِ

يا نفسُ كُفي عن العصيانِ واكتسبي فِعلاً جميلاً لعل اللهَ يرحمني
يا نفس ويحك توبي واعملي حسنًا عسى تُخزيه بعد الموت بالحسنِ
ثم الصلاة على المختار سيدنا ما طاب أرض في الشام واليمنِ
والحمد لك مُمسنا ومصبحنا بالخير واللطفِ والإحسان والمننِ

* * *

فينا من تقدَّم جده وأبوه وصديقه سكن الثرى وأخوهُ
وغدا إلى دار البلى أقاربه ومضى على حُفَر القبور بنوهُ
ورأى مصارع إخوة وقرابة بين الثرى في برزخ سكنوهُ
ألا أتيت قبورهم فسألتها عنهم وعن ما في القبور لَقُوهُ
فلتخبرنَّك أنَّ أحكام البلى تجري عليهم وهموا وطَنوه
ولتخبرنك أنهم وجدوا الذي عملوا مكتوبًا كما عملوه
ما زادت الحفظاء في أعمالهم مثقال ذرة ولا نَقصوه

* * *

يُروى عن بعض المتعبدين أنه قال: إلهي عصيتُك قويًا، وأطعتك ضعيفًا، وأسخطتُـك جَلْدًا، وخدمتُك نحـيفًـا، فيا ليـت شعري، هل قَـبِلْتني على لُؤْمي، أم صـرفتني على جُـرْمي؟ قـال: ثمَّ غُشِيَ عليـه ووقع في الأرض، وانسلخت جبهتُه . فقامت إليه أمه، وقبَّلته بين عينيه، ومسحت جبهته وهي تبكي وتقول: قَـرَّةَ عيني في الدُّنيا وثمـرة فؤادي في الآخرة، كلِّم عـجوزك الثَّكلى، وردَّ جوابَ أُمِّك الحرّى.

قال: فأفاق الفـتى من غشيته ويدُه قابضة على كـبده، ورُوحه تتردَّدُ في جسده، ودمـوعُه تنسكِب على خدِّه ولحيـته، فقال لهـا: يا أمَّاه، هذا اليومُ الذي كنت تحـذريني منه، وهذا هو المصـرعُ الذي كنت تخوفـيني منه، هذا مصـرع الأهوال، وسقوط عثـرة الأثقال، فيـا أسفا على الأيام الخـالية، ويا جزعي من الأيام الطِّوال التي لم أُعَرِّجْ فيها على الإقبال .

يا أماه أنا خائف على نفسي أن يطول في النار سجني وحبسي، يا حُزناه إن رُميت فيها على رأسي، ويا أسفاه إن قُطِعَت فيها أنفاسي .

يا أماه ، افعلي ما أقولُ لك .

فقالت له: يا بني، فدَتْكَ نفسي، ماذا تريد؟

قال لها: ضعي خدي على التراب، وطئيه بقدمك حتى أذوقَ طعم الذل في الدنيا، والتلذذ للسـيد المولى، عسى أن يرحـمني وينجيني من نار لظى، قالت أمه: فـقمتُ إليه في الحال، وقد ألصق خدَّه بالتـراب، والدموع تجري من عينيه كـالميزاب، فوطئت خدَّه بقدمي، فإذا هو ينادي بصـوت ضعيف: هذا جزاء من أذنب وعـصى، هذا جزاء من أخطأ وأسى، هـذا جزاء من لم يقف بباب المولى، هذا جزاءُ مَنْ لم يُراقِبِ العليَّ الأعلى .

قالت: ثم تحوَّل إلى القبلة، وقال: لبيك لبيك، لا إله إلا أنت سبحانك

إني كنتُ من الظالمين .

قال: ثم مات في مكانه، فرأته أمه في المنام كأنَّ وجهَه فلقة قمر تجلى من سحاب، فقالت له: يا بني، ما فعل بك مولاك؟ قال: رفع درجتي، وقرَّبني مِنْ محمد ﷺ، فقالت له أمه: يا بني، ما الذي سمعت منك تقوله عند وفاتك؟ فقال لها: يا أمَّاه، هتف بي هاتف، وقال لي: يا عمران، أجب داعي الله، فأجبته، ولبيتُ ربي عز وجل[١] . رحمه الله تعالى .

أيها الإنسان- وكلنا ذلك الإنسان- استيقظ من غفلتك، وهب من رقدتك، قد آن أن يُدعى لك الطبيب بجميع الدواء، فلا يُرجى لك مما نزل بك الشفاء، ثمَّ يُقال فلان قد أوصى وجميع ماله قد أحصى، قد تبرأ من الدنيا وعلائقها، وأقبل إلى الآخرة وحقائقها، ثمَّ ضعف جنانك، وثقل لسانك، وانقطع كلامك، وكثرت خطوبك، وعظمت كروبك. . . واشتدت الأحزان، وعلا صراخ النسوان، وحزن الصديق الودود، وفرح العدو الحسود، ثم يقال لك: هذا ولدك الصغير وهذا الكبير، وهذه بنتك الكبرى، وهذه شقيقتها الصغرى، فلا ترد عليهم جوابًا، ولا تستطيع لهم خطابًا، ثم اشتد بك النزع والسياق، إذا التفَّت الساق بالساق، وانتزع ملك الموت روحك الضعيف، وعَرَج به إلى مولاك اللطيف.

فتب قبل أن تتوب فلا يُقبل منك توبة، ولا تنفعك أوبة، فاللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين .

وأهدي كتابي إلى أبي وأمي وزوجي وولدي شفاء وصهيب .

فضيلة الدكتور/ مصطفى مراد صبحي

عضو هيئة التدريس بكلية الدعوة الإسلامية

---

(١) بحر الدموع لابن الجوزي (٤٤، ٤٥) .

الفهرس